

المكان في الشعر الاندلسي

الفصل الثاني

البعد التراثي الفكري.

(ثنائية المكان التاريخي والمكان الانبي).

تقديم

المبحث الاول: المكان التاريخي .

_المكان الحربي.

_المكان الديني.

_المكان الحضري.

المبحث الثاني: المكان الانبي.

_الامكنة الانبية المستوحاة من موروث الامكنة التاريخية.

_ادب الاستنجد تجسيد للمكان الانبي عند الشاعر الاندلسي.

© b e i k a n d i . c o m

تقديم .

يقوم هذا الفصل برسم البعد التراثي والفكري للمكان عند الشاعر الاندلسي في عصور: المرابطين والموحدين وبنى الاحمر . فالمكان يؤثر احساسا بالتاريخ في جميع اشكاله^(١) . ويثير التاريخ اهتماما بالمكان ايضا لما له من اهمية في اخضاع الحوادث التاريخية - الحربية والدينية والحضرية - لمكان معين واقليم ما . فيعد المسرح الذي تجري عليه تلك الاحداث .

وقام هذا الرسم للابعاد التراثية الفكرية للمكان في الشعر الاندلسي على مدحيتين اثنتين . استغلا مفهوم الثنائيات لجمع العناوين الكثر ، واختصار المادة العلمية والادبية وتبويبها على وفق المنهج الذي وضعناه في الفصل الاول .

فكان المبحث الاول تحت عنوان (المكان التاريخي) ، وفيه كشفنا عن الامكنة الحربية وما خلفته من نتائج تراوحت بين نصر وهزيمة ، وما تركته هذه اليزائم على مكان الشاعر ، وتبعات اليزائم المتواليه لجيش المسلمين ولاسيما بعد عصر الموحدين وهم تلك التبعات سقوط المدن بيد النصارى ومحو ما يمت الى الجنسية العربية الاسلامية بصلة او مساس . فكانت الامكنة الحربية كثيرة ، ونتائجها كبيرة .

وكشفنا في هذا المبحث عن الامكنة الدينية ودلالاتها ، وهي من جانب تمثل الترابط الروحي الذي يجمع الانسان الاندلسي بخالقه ومن جانب اخر تستنطق مشاعر المسلمين عند قراءة النصوص الشعرية التي سالت وهي تصف تلك الامكنة وتعبّر عن غربتها وتبكي هجرها ، واحتلال النصارى لها .

وكشفنا في هذا المبحث ايضا عن انواع الامكنة الحضرية ، ومظاهرتلك الحضارة الزاهية المتألقة التي انشأها اولئك الاجداد عبر ثمانية قرون من الزمن . وهذا الفصل الحضري لتلك البلاد شهدت به اوربا التي كانت حينذاك تغيب في ظلام دامس ، وجيل مطبق في جميع شؤون الحياة ، ومختلف مجالات العيش .

اما عن الامكنة الأنية فجاءت في المبحث الثاني وفيه كشف المبحث عن دلالة الامكنة الأنية المستوحاة من المكان التاريخي (المشريقي ، الاندلسي) ، وهذا الامر متعلق بنفسية الشاعر وازماته الداخلية التي نتجت انيا عن رؤيته لمكان ما اثار حفيظته . وراى فيه مأساته فراح يعبر عنها بابياته .

(١) ينظر : كتابة المكان بعيدا عنه: خليل النعيمي، مجلة الاقلام، ع ٢، ١٩٩٨، ص ٥٠ .

وكشف المبحث عن سمات المكان الانسي عن طريق ادب الاستجداء، ومتيومه
وخصائصه في نصوص من الشعر الاندلسي اتسمت بحرارة العاطفة، ومرارة الموقف.
وهي خصائص هذا الادب الذي يجب ان يكون مؤثرا تماما في الاخرين وسحركا اليمم،
مستفذا الطاقات في سبيل نصره الاسلام والمسلمين فلعل الشاعر الاندلسي يعرف هذه
الخصائص جيدا فادارها بين معاني ابياته، وكان المكان عنصرا مهما من تلك
الخصائص والمعاني.

المبحث الاول: المكان التأريخي.

المكان التأريخي. هو المكان الذي انفوح منه رائحة القرون والاجيال السالفة مشيراً بخصوصيته الى الجذور التاريخية العرقية التي تنتمي اليها^(١) فهو استلهام واتعاظ لاحداث الماضين، واستذكار لوقائعهم وانتصاراتهم، وتكوين لمشاعرهم تجسّد تلك الوقائع. وهذا هو هدف التاريخ اذ هو المصدر الذي نعود اليه في حياتنا وتاريخنا اليومية المختلفة. فكيف كان موروث الامكنة التاريخية في النص الشعري الاندلسي؟ ومدالالاتها؟ واثرها الفكري عند شاعر الاندلس؟؟ هذي اهم الاسئلة التي يطرحها البحث في هذا الفصل، وسيجيب عليها من خلال الامكنة الآتية:-

المكان الحربي.^(٢)

(اخذ شعر الحرب مساحته في القصيدة العربية، واتسعت مدلولاتها في اطواره الشعري، واغنت مفرداتها من خلال استخدام الشعراء للمفردة الشعرية التي كانت تتحرك في دائرة المعاني، وشحنت الفاظها بقدرات المقاتلين الاشداء الذين كانوا ينجون عطاءها بتضحيتهم، ويوقدون سعيها باقتحامهم)^(٣). والشعر المواكب للاحداث يسير جنباً الى جنب في الظفر بالصورة الموحية واللفظة المنتقاة للتعبير عن ما يدور في خلجات النفس من جزع ولاواء وشدة في ذلك الميدان الذي لا يدخله الامغاور، ولا يخوض نقيه الا فارس. ومن الشعراء من يخوضون ذلك الميدان، فـ(يسجلون لوحات المفاخر الخالدة، والمآثر التي يظل صداها يعيش في قلوب الرجال الذين يستذكرونها باعتزاز ويعيشونها باباء ويمثلون بها كل مادعت الحاجة اليها)^(٤).

وفي الشعر الحربي في الاندلس، ما يعد بحق التمثل الحقيقي للمكان سواء اكان لدى الشعر المشارك ام من قبل معدودحه الامير او الحاكم او قائد الجند، وعل

(١) القضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا: ص ٢٥٦ وينظر: حركية الابداع- دراسات في الادب العربي الحديث- د. خالدة سعيد، دار العودة- بيروت، ط٢، ١٩٨٢، ص ٣٠.

(٢) لانريد ان نطلق مسميات اخرى على هذا الشعر مثل: الشعر السياسي، او الشعر الحماسي، لان دراستنا قائمة على اثر المكان في النص الشعري.

(٣) شعر للحرب في عصر الرسالة: دنوري حمودي القيسي، الموسوعة الصغرى، بغداد، ١٩٨٢، ص ٢.

(٤) المصدر نفسه.

الدراسات^(١) الكثيرة، والقصائد المترجمة في هذا المجال. ما يبوح عن كنه المشاعر الحقيقية التي تعطي المرء في ميادين القتال، وما ترافقه من أزمة حادة وعويل مدو على طوال الكوارث التي حلت بالاندلس. ومن ثم مقوطها نهائيا والبقاء عليها.

وعلى الرغم من ان بحثنا هذا ليس معنيا بشرح الحوادث والنكبات والمعارك والفتن التي حدثت في الاندلس او الاطالة في شرح اسباب المعركة وبيان نتائجها تاريخيا، الا اننا سنعنى بدراسة المكان الحربي الاندلسي- ان جاز التعبير- من خلال تلك الحروب والمعارك التي قادها العرب في الاندلس ضد الاسبان وهذا ما يتطلب اضاءات تاريخية كثيرة يمكننا تبيان اهميتها والتعريف بها بحسب المعركة التي وقعت، وحسب نتائجها في تاريخنا العربي الاندلسي.

ان اولى المعارك التي تطألعنا -مدة دراستنا- هي وقعة افليش^(٢) التي حدثت سنة (٥٠١هـ)، وهي من اوائل انتصارات المرابطين ايدانا ببدء التاريخ السياسي لدولتهم. بعد ان كانت الزلافة فاتحة لتعرف الناس على هذه الفئة من المسلمين، وتلقى الضوء على قتالهم وصبرهم، وانهم-أي المرابطين- الفئة التي سيؤول اليها امر الاندلس بعدما ال اليها الامر في المغرب.

^(١) دراسة د. جمعة شيخة من اوفى الدراسات التي تناولت اثر الحروب والمعارك في الاندلس. ولكنها تعنى اكثر ما تعنى بجمع النصوص الشعرية بتوبيها على المصور والاحداث، ولذا سنتناول هذه النصوص في تحليلنا من وجهة نظر اخرى تماما.

لاشك في ان معركة الزلافة (٤٧٩هـ) اهم معركة قادها المرابطون جل، واهم معركة حدثت في الاندلس ولكنها لا تدخل في صميم دراستنا الفعلية فاعلم شعرنا من عصر الطوائف ولذا اهلنا الحديث عنها ^(٢) راجع عن المعركة: البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، ٤/٤٩-٥٠. عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس: محمد عبد الله عنان، القاهرة ١٩٦٤، ص ٦١، التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: د. عبد الرحمن علي الحجي، دار القلم، دمشق- بيروت، ١٩٧٦، ص ٤٢. واقليش (مدينة لها حصن في ثغر الاندلس وهي قاعدة كورثنترية وهي محدثة بناها الفتح بن موسى بن ذي النون...)، الروض المعطار: ٥١، ٥٢. ويذهب الاستاذ عنان الى ان الفتح بن موسى لم ينشئ افليش فقد كانت تورته في بداية عهد الناصر بعد سنة ٣٠٠هـ. ولذا فان انشاءها وقع في اواخر القرن الثالث. ينظر: عصر المرابطين والموحدين بالاندلس: ٦١.

وعلى الرغم من أهمية هذه المعركة في إيقاف جيش النصارى في زحفه نحو الأندلس ومن نتائجها دخول أهل الأندلس في عهد دولة جديدة تاريخياً وسياسية- إلا أن المصادر الأدبية والتاريخية لا تشير إلى هذه المعركة شعراً إلا عرضاً في ديوان الأعمى التطيلي، وحتى هذه الإشارة خصصت للمدح الشخصي للقائد الذي خاض غمارها أكثر من كونها إشارة لواقعة، أو تسجيلاً لمنازلة كانت تمثل هذه الأهمية. وعلى أية حال، فإن سمات المكان الحربي تظهر جلياً عندما يذكر المعركة باسمها- أفليش- ومن ثم يصف جيش المسلمين وما فعله بالأشهرار من الروم، بروح حماسية مججلة في النص الأول، فيقول:-

وَصَبَّحَتْ أَقْلَيْشُ فِي جَفْلٍ اغْصَّ الْوَهَادُ وَأَدَّ الرَّعَانَا
بِكُلِّ كَمِيٍّ يَرْوَعُ الْإِسْوَدَ خِمَاصاً، وَيَرَعِيْ عَلَيْهَا بَطَانَا
فَأَبَتْ وَغَادَرَتْ تَلْكَ الدِّيَارَ عَجَافَا تَهَادِيْ خُطُوباً سَبْمَانَا^(١)

في النص الثاني يصور لنا شاعرنا التطيلي، عظمة جيش المسلمين في هذه المعركة، مستمداً من صفات القائد^(٢) ما عرف عنه المسلمون من بأس وثورة وبسالة لا تتأذى عن كل من أراد الدفاع عن وطنه، ونصرة دينه، وطرد الغاصب المحتل، وبذا لا بد أنه يكون جيش النصارى كما يقول من أنهم فرانس سهلة لانسود وخبول ما تنفك تطعنهم وتدوس وجوههم المنعمة:

سَلِ الرُّومُ فِي أَقْلَيْشِ يَوْمَ تَجَايَشُوا أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْفَرَانِسَ لِلْأَسْدِ
تَبَارَوْا إِلَيْ تَلْكَ الْحَتُوفِ فَسَلَهُمْ أَمَا كَانَ عَنْهَا مِنْ مَحِيصٍ وَلَا بَدِّ
عِدَاةَ رِمَاكِم كَلَّ طَوْدٍ بِمَثَلِهِ مِنْ الْقَصَبِ الْمَنَادِ وَالْحَلَقِ السَّرْدِ
أَعَزُّ مِنَ الْهَضْبِ التِّي قَذَفَتْ بِهَا فَمَا بِالْكُمْ كُنْتُمْ أَنْزَلُ مِنَ الْوَهْدِ
أَلَمْ تَزْعَمُوا أَنَّ الصَّلِيبَ وَأَنَّهُ كَانَكُمْ لَمْ تَسْمَعُوا بِالْقَنَا الْمُلْدِ

(١) ديوانه: ص ١٩٤.

(٢) استنتج د. جمعة شيخة اسم القائد من الأبيات وهو الوزير أحمد بن أبي ربيع بن عبد الملك. ولم نعر لسه على ترجمة. الفنن والحروب: ٢٠/٢.

رويدكم حتى تروا كيف ترتمي بأنفسكم بين الإجازة والسردي
وحتى تدوس الخيل أوجه فتية كرام عليها غير شؤم ولا كسد^(١)

ان صورة المكان في هذين النصين لا تخلو من رهبة واثاعة خوف، لان الشاعر قد اغرم بأسباغ صفات القوة والمنعة على جيش المسلمين، في حين وصف جيش الإعدو بالضعف والانتكسار، ولاشك في ان صيغة الاستفهام بـ(الم) الشائعة في النص الثاني جاءت لتقرير حقيقة هذا الامر امام النصاري.

ان اهم ما يميز الاماكن الحربية انها (ليست اشياء قائمة بذاتها، وانما تكتسب شخصيتها من خلال الناس والاحداث)^(٢) ولما كانت أي واقعة او منزله تحدث بين جبهتين تختلفان تأميراً وعقيدة وقوة، فاننا بالامكان ان نجد شخصية المكان الحربي الذي نرد انه نهتك اسراره ونخوض غماره داخل النص الشعري الأندلسي عن طريق هذه الوقائع والمنازلات، وما قيل في ابطالها وقادتها

وفي عصر المرابطين يمكننا ان نلتمس اثار البطل القائد^(٣) عند الكثير من الشعراء، وحتما ان صفات البطل هذي ما كانت لتقال لولا خوضه المعارك، ونجدته فيهابحيث ولد اثر عند الناس ومن ثم عند الشاعر الذي اراد ان يخلد سيرته ويكتب اثاره عن طريق النص الشعري، فالشعراء (كانوا يبقون امام البطل مدهولين كأنما يستر في طواياه قوى خفية، وهي قوة مكنت له في رايهم من الاتيان بالخوارق في البسالة وقتال اعدائهم، وهي خوارق لاتقف عند نجاته من القتل بل: تمتد الى نجاتهم معه نجاه جعلتهم يشعرون بقوة انه هو الذي يهبهم الحياة)^(٤).

(١) ديوانه: ص ٣١.

(٢) دلالة المكان في مخمسة مدن الملح: ص ٢٨.

(٣) كتبت رسالتان للماجستير في البطولة في الشعر الأندلسي الاولى كانت في عصري الطوائف والمرابطين للباحثة نادية فتحي هادي، في كلية الاداب في جامعة الموصل، ٢٠٠٠؛ والآخر؛ من عصر المرابطين حتى سقوط غرناطة للباحثة نضال مهدي حميد، كلية الاداب جامعة بنغازي، ٢٠٠١. وكتب د. رعد ناصر الوائلي عن صورة البطولة عند شعراء بني الاحمر، فكان مؤلفه يحمل عنوان: (الشعر الأندلسي في عبيد بنسي الاحمر - صورة جهادية بطولية -). طبع في مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ط ١، ٢٠١٤ هـ - ٢٠٠٠ م.

(٤) البطولة في الشعر العربي: د. شوقي ضيف، دار المعارف-مصر، ١٩٧٠، ص ٩.

الاعمى التطيلي الشاعر الكفيف الذي تقلبت به الظروف بين حزن وفرح، امان وخوف يرى في ممدوحه علي بن يوسف بن تاشفين، ما يراه في القائد الاموذج الذي يحتذى بكل سبيل، ويعاهد على كل امر، فيقول في قصيدة يبدأ مطلعها بايضاح طرق المهتدين والضلال:

بَيْنَ سُمْرِ الْقَنَا وَبِيضِ النَّصَالِ طَسْرُقُ الْمَهْتَدِينَ وَالضُّلَالِ
ومن ثم يعرج على ذكر المقاتلين من ابناء جيشه، ونجد ان هذي الصفات (تجمع بين الشجاعة والامانة واقتحام غمرات الاجال والاجال بين حنايا السيوف حيث يستقر بذلك نظام الملك..... انهم سيوف الابطال تتطوق بما فعلت في الهامات والذوائب، فتصدأ صفحات السيوف من دم القتلى الكثيرين وهي مازالت في اول عهدها بالصقل والمسح)^(١):

فَالْيُ الْأَمْنِ وَالْإِمَانَةِ أَوْفِي غَمْرَاتِ الْأَوْجَالِ وَالْإِجَالِ
ومسح السعد والسعادة اوبيين حنايا السيوف والاغلال

اصْبَحَ الْمَلِكُ فِي ضَمَانِ عَلِيٍّ آمَنَ السَّرْبِ، ضَافِي السَّرِبَالِ
في ضلال القنا وقد زالت الهضبة بـ بما فوقها زوال الضلال
وسيوف الابطال ترعد ممسا فعلت في جماجم الابطال^(١)
وهكذا يسترسل الشاعر في عرض هذه الصفات، ومنها ينتقل الى ممدوحه فيزيده رفعة وجلالا، فهو من اولئك الاباء الذين عرفوا بمثل هذه الخصائص في قيادة الحروب وادارة المعارك.

ابن خفاجة الذي يجب ان نخفف من غلواء من قال عنه انه عاش (حياة فارغة لابد لصاحبهما ان يملأ باي عمل من شأنه ان يطرد السأم عنه وقد ملأها ابن خفاجة بالشعر. والفرق واضح بين من ينظم الشعر لطرد السأم وملء الفراغ وبين من ينظمه

(١) المرابطون بالانندلس من خلال ديوان الاعمى للتطيلي: حمن الطريقي، مجلة المناهل_ المنرب. ١١٤ .

١٩٧٨ ص ٣٧٤.

(٢) ديوانه: ص ٣٠.

لاشك في ان صور الطبيعة بكل مظاهرها، بقيت في ذهن الشاعر في رسم صورة الحربية، ولكن الصور الطبيعية -على كثرتها- في اللوحة السابقة كانت ملائمة تماما لما يعتلي وصف الحرب فيها، اذ جاءت تلك المظاهر بما كندر من مخاوف وما تسثره من مزوجة حقيقة بين الموت والحياة في ايشع الصور، وعل عبارات النص مثل: (عباب خضم، طمى يتدفع، ليل حابس، نواصي الخيل، نكباء زعزع)، قادرة على بيان الناحية الحركية ومن ثم الصوتية في المكان الحربي، فكل عبارة ادت مدلولاتها الصوتية العالية، وحركتها المضطربة بما يناسب واقع المكان الذي قيلت فيه. كما ان وكذ الشاعر الذهني، وشدة معاناته في رسم صورته في هذه اللوحة يدلان دلالة قاطعة انه -أي ابن خفاجة- لم يكن فارغا، او اراد طرد السأم والضجر من حياته اللاهية بهذا الوصف، وهذا الوكذ وتلك المعاناة ليحسها القاصي والداني وهو يقرأ النص من كثرة الاعمال التي شاعت، كالفعل ومصدره في قوله: (اجفل اجفال...، اقلع اقلع). فضلا عن الاعمال الاخرى التي وردت كالمضارعة مثل: (يسري، يسرع، يستقبل). وكذلك الاعمال المضغفة المكررة في النص مثل: (يتدفع، لفتة، لفت، الف). فهذا الامر لا ينتج لولا حالة نفسية قلقة عاشها الشاعر، وعانى منها مكانا وزمانا، ناهيك عن انه القصيدة فعلت في الثغور، وهي اماكن (تأخذ في قصيدة الحرب بعدا محسوبا لاهميتها في الدفاع والمقاومة والحماية وابعاد شبح الدمار والهلاك وقد استأثر اصحاب الثغور باهتمام الشعراء لما يتحملونه من اعباء ويضطلمون به من مسؤوليات ويلتزمون به من بقطة وحتر ويتابعون واجبات تفرضها طبيعة الموقع الحربي)^(١).

(١) شعر الحرب في العصر العباسي: دنوري حمودي القيسي، مجلة المجمع العلمي العراقي بغداد، مج ٢٥، ج ٤، ١٩٨٤، ص ١٣٩.

ان المتابعة الدقيقة لنصوص ابن خفاجة المدحية في هذا الامير، لتؤكد تماما صحة ما ذهبنا اليه انفا، ولنقرأ قوله وهو يمدحه ويذكر ما كان من افتتاحه لقورية^(١) ونقول ابن رذمير عن تداركها:

ألم تسر ما كان من بأسمه
وخار الأبى وخزر الكمي
ورام النصاري بها نصرة
وصد ابن رذمير عن نصرها
فما التمسوا الغوث إلا التوى
ولا أم يقبل حتى انتشى
بقورية يوم خاتم البطل
وجدد الجلد وقيل الجدل
فلم ينجد الروم روم الحيل
تلظي حراب دوامي المقبل
ولا استجزوا الوعد إلا مطل
حذاراً ولا غام حتى أضحمل^(٢)

لم يقتصر الشد الذهني في رسم الصورة الحربية لهذ الفتح على الأفعال المضعفة وان كثرت مثل: (خر، جد، قل، صد، أم، اضمحل). وهي تدل على التكثر من الامر وشدته^(٣) بل واشتركت معها البنى الصوتية للنص فالمتقارب بحر (اصلح للتعبير عن العاطفة الجياشة)^(٤) كما ان القافية المقيدة التي نظمت عليه القصيدة قافية صعبة، فلذا هي قليلة الشيوع في الشعر العربي^(٥) فاراد ابن خفاجة ان يعوض صعوبة هذه القافية باستخدامه حرف اللام روياء، وهو حرف شائع في نظم الشعر^(٦) ان هذا التعب في استنزاف التشكيل الموسيقي (البحر، القافية، الروي،) وبنائه على هذه الشاكلة ما كان ليتم لولا حالة متزامنة رأت في ممدوحها سمات الموت، الذي ان حدث له، ضاعت امال ابن خفاجة وتركته وحيدا كسيرا.

- (١) قورية: مدينة قرب ماردة لها سور منبع، ينظر: الروض المعطار، ص: ١٦٤. وعن تفاصيل المعركة ينظر: عصر المرابطين والموحدين: ص ١٠٣، الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٩٤/٢-٩٥.
- (٢) ديوانه: ص ١٠٣.
- (٣) ينظر: شذ العرف في فن الصرف: الشيخ الحملاوي (ت ١٣٥١هـ)، مكتبة النهضة العربية- بغداد (د.ت) ص ٤١.
- (٤) شرح تحفة الخليل: عبد الحميد الراضي، مؤسسة الرسالة، بغداد، ط ٢، ١٩٧٥، ص ٢٩٣.
- (٥) ينظر: موسيقى الشعر: د. ابراهيم انيس، مكتبة الانجلو المصرية- القاهرة، ط ٤، ١٩٧٢، ص ٢٦٠.
- (٦) ينظر: م. ن. ص: ٢٤٨.

إذا بقينا في عصر المرابطين، لنستقصي بقية اماديه الحربية، وجدنا شاعرا اخر هو ابو عبد الله بن ابي الخصال (المقتول سنة ٥٤٠هـ)^(١)، يمدح الامير تاشفين بن علي في موقعة كركي^(٢) التي وقعت سنة ٥٣١هـ، وهذا المديح يقوم اساسا على اثر المكان الذي وقعت فيه المعركة اكثر من أي تأثير اخر في (بيدو ان بعد الممدوح عن بعض مناطق الثغر اغرى النصارى بمهاجمتها لا طمئنتانهم على عدم قدرة المسلمين رد الفعل مباشرة. فلما فاجأهم الممدوح في عقر دارهم، ساء تقديرهم، فكان ظنهم وهما، فكانت خسارتهم فادحة)^(٣)، يقول:

قَدْ كَانَ بَعْدَكَ لِلْإِعْدَاءِ مَمْلَكَةٌ حَتَّى اسْتَدْرَتْ عَلَيْهِمْ كَوْرَةُ الْفَلَاحِ
سَارَتْ بِكَ الْجُرْدَا وَطَارَ الْقَضَا بِهَا وَالْحَيْنُ قَدْ قَيَّدَ الْإِعْدَاءُ فِي شَرْكِ
فَمَا تَرَكْتَ كَمِيًّا غَيْرَ مُنْعَفِرٍ وَلَا تَرَكْتَ نَجِيْعًا غَيْرَ مُنْسَفِكِ
نَامُوا وَمَا نَامَ مَوْتُورٌ عَلَى حَنْقٍ اسْدَى إِذَا لَهُ فُرْصَةٌ مِنَ السَّلَكِ
فَصَبَّحَتْهُمْ جَنُودُ اللَّهِ بِأُطْشَةِ وَالصَّبْحُ مِنْ عِبْرَاتِ الْفَجْرِ فِي مُسْكِ

وقد ذكر الشاعر كثيرا من الامكنة الاخرى التي غزاها الممدوح، فضلا عن كركي مكان الحرب الاول، وهذا ما يتداعى في النص من خلال اوصاف الممدوح، اذ تتطلب هذه الاوصاف سرداً للحروب التي خاضها، وذكر اماكنها بوصفها وثيقة تاريخية. الى جانب كون النص وثيقة ادبية اخلاقية تدل على الشجاعة واليسالة وما الى ذلك فيقول في تشكيل ايقاعي رتيب:

(١) محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن مجاهد بن ابي الخصال النافقي، يكنى ابا عبد الله، اصله - سر فرغليط من شقورة، من كورة جيان سكن قرطبة وقرطبة وقرطبة نو الوزائين الشاعر الكاتب. له فصائد كثيرة اهمها مخسنه التي قالها يتشوق الى قرطبة. ولوردها ابن الخصيب كاملة. قُتل بداخل مدينة قرطبة. يوم دخلها النصارى سنة (٥٤٠هـ): ينظر: الذخيرة: ٧٨٤/٢-٧٨٦. الخريدة: ٤٦٥/٢. الاحاطة: ٣٨٨/٢-٤١٧. وكُتِبَ فيه رسالة ماجستير تحت عنوان: ابو عبد الله بن ابي الخصال الكاتب. للباحث: ستار جبار ارويج، كلية الادب في جامعة بغداد، ١٩٩٢.

(٢) كركي: بلدة قرب قرية رباح جنوبي نهر يفة، ينظر الاحاطة: ٣٩٣/٢-٣٩٤. وعن المعركة: عصر المرابطين والموحدين: ص ١٤٢.
* كان الممدوح يقيم في قرطبة.

(٣) الفنن والحروب واثرا في الشعر الاندلسي: ٧٨-٧٩، وينظر: الاتجاه الاسلامي في الشعر الاندلسي: ص ٢٧٧-٢٧٨.

وكم مضى لك من يوم بنت لك
بالنقع مرتكم بالموت ملقنم
فحص القباب التي فحص الصعاب إلى
وكم على حبر محمود وجارته
في ماقط برماح الخط مشتبك
بالبيض مشتمل بالسمر محتبك
اربولة من مداسات إلى السكك
للسروم مرتكل من غير مُترك^(١)

وبلا ريب فان الحدث هنا هو الذي يحرك مشاعر الشاعر فقد جاءت هذه الانتصارات وقد تكالبت الظروف على دولة المرابطين، في المغرب من قبل الموحيدين وفي الاندلس من قبل النصارى الاسبان، ولذا فان الاستطرد بذكر حروب الممدوح ونصره فيها، وايداع تلك الانتصارات في مثل هذه الاشعار قادرة على تحريك الهممة، وايجاد الامس لولو كان ضعيفا بعيدا.

في عصر الدولة الموحدية التي قامت على زوال دولة المرابطين، كانت الحروب سجالاتا مدة حكمها للمغرب والاندلس، وقد سال شعر كثير من تلك المعارك التي قادها الموحدون-هزيمة وانتصارا- ودونت لنا المصادر الادبية والتاريخية والجغرافية كثيرا من تلك الوقائع والغزوات. على ان المكان الحربي في هذا العصر من حيث الشعر- لم يخرج عن عموم خصائص المكان الحربي بالنسبة للاندلس منذ عصر الطوائف، ذلك العصر الذي شهد بداية الفتن والحروب التي اودت بحكامه ومدنهم اولا ثم عم الدمار ليشمل الجميع في كل مكان من الاندلس. واهم خصائص الامكنة الحربية التي استطعنا ان نلمحها من خلال الشعر في هذه العصور هي:

أ- تصوير عظمة الجيش الاسلامي وبيان عدته وكثرة جنوده واهمية هذه الكثرة في مقاومة الاعداء. اذ اصبح جانب الكثرة معهودا عليه في الانتصارات، بسبب ما يوديه المكان المفتوح للجزيرة الاندلسية من سهولة الوقوع في ساحات قتال الاعداء، الذين يتميزون بكثرتهم المفرطة، فلا بد من الاقامة في جميع المدن الاسلامية هناك وهي مدن واسعة تفصلها مساحات شاسعة بعضها عن بعض. وبذا يتطلب ان يكون هناك جيش في كل مدينة اندلسية.

ب- التركيز على جانب القيادة العسكرية المحكمة للجيش الاسلامي، ومدح القادة والامراء في خوضهم المعارك ورتاء من سقط منهم شهيدا. وابرار الطاعة

(١) الاحاطة: ٣٩٤/٢.

والولاء للقائد العام في كل الظروف واصعب المواقف والضرب على يد الخارجين، واصحاب الفتن الداخلية الذين ظهروا في وقت كانت فيه الدولة مشغولة بحروبها الخارجية.

جـ. شدة العناية بمكان الحرب، ومن ثم الانطلاق في الحديث لبيان ما وقع في هذا المكان سواء اكان اثناء المعركة ام بعدها لاسيما في المعارك التي هزم فيها المسلمون وما اعقب هذا الانهزام من سقوط المدن الاندلسية الواحدة تلو الاخرى نتيجة حرب غير متكافئة، او فتنة ظالمة او غدر او استبداد برأي خلف جرحا كبيرا لم يندمل حتى يومنا هذا.

ان البحث هنا بقصد انتخاب امودجات شعرية ادت اثرا في تجسيد المكان الحربي في الشعر الاندلسي، وهو-أي البحث- ليس من وكده ولا من شأنه ان يدور حول كثرة الحروب والانتصارات، او الهدن والمعاهدات التي عقدت بين ابناء الاسلام وابناء النصارى لانهما كثيرة ومعروفة من قبل كثير من الباحثين- مؤرخين وادباء- ، ولذا؛ ربما سنرى الملل الحقيقي اذا ما حاولنا اعادة ما كتب واثارة اشياء ربما لاتمس البحث بطيب قربت ام بعدت.

اذا ما اردنا ان نلج صفات المكان الحربي في الشعر الاندلسي على عهد الموحدين باطمئنان، يمكننا القول ان وقعة فحص بلقون^(١) التي حدثت سنة (٥٥٦هـ) هي اوائل الوقائع التي جسدت بعض سمات المكان الحربي وهي وان اقتصرنا على المديح لعبد المؤمن بن علي ووردت عند شاعر واحد هو ابو العباس الجراوي (ت ٦٠٩هـ)^(٢). وقد راي في هذه المعركة (عزا للاسلام بعد ذل، واما للبلاد بعد خطر)^(٣) بعد ان الحق

(١) رجح د. جمعة شيخة ان هذا الحصن يقع قرب جيان، الفتن والحروب: ١٤٧/٢. واستدل على ذلك من

كلام ابن صاحب الصلاة في: تاريخ المن بالامامة: ص ١٦٩.

(٢) ابو العباس احمد بن حسين بن سيد الجراوي الملقب، احد الادباء الذين عاشوا في البلاط الموحيدي. كان شاعرا وكاتبيا بليغا تحول من مالقة الى قرطبة ثم صار الى مراكش فأدب بني عبد المؤمن، وبها توفي سنة (٦٠٩هـ). ينظر الفصون للبانعة في محاسن شعراء المائة السابعة: ابن سعيد المغربي، تحقيق: ابراهيم

الايباري، دار المعارف- مصر، ١٩٤٥، الترجمة الثامنة ص ٩٨. الوافي بالادب العربي المغرب الأقصى: ١/١٢١-١٢٦، ديوانه: تحقيق: د. علي ابراهيم كردي، دار سعد الدين للنشر- دمشق، ط١: ١٩٩٤. سدسة المحقق ص ٩-١٢.

(٣) الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ١٤٧/٢.

الموحدون هزيمة نكراء بتلك السرية النصرانية التي جاءت تتعقب آثارهم وتسمع اخبارهم فيقول مخاطباً الممدوح:

اعليت دين الواحد القهار
ورأى بك الاسلام قرة عينه
وسلكت من طرق الهداية لاجباً
وقفت على ماقد اردت سعادةً
بالمشرفية والقتال الخطار
وغدت بك الغراء دار قرار
طوبى لمن يمشي على الآثار
وقفت عليها خدمة الاقدار^(١)

ومن ثم ينتقل نحو تصوير المكان الامن اثناء الحروب لان (المكان الامن يستحضر ذهنياً من ابا المكان غير الامن، وفعل الاستحضر بيان واضح الدلالة تعلنه الشخصية لرفض الواقع القائم والبحث عن بديل، يتناقض ودلالة المكان الاول)^(٢)، في قوله:

وافيت اندلساً فامن خائف
وحللتم جبل الهدى فحللتم
سبعى لأخضر الثأر رب الثأر
منه عقود عزائم الكفار
سبقت بشانره إلى الامصار
جبل الهدى والفتح والنصر الذي

(٣)

ان جبل طارق المعروف بجبل الفتح^(٤) هو البؤرة المكانية المهمة في النص فحولها دار الحديث من مدح اوصف للمعركة ثم انتقل بعده ليصف خيل الممدوح في الحرب، وانه -الممدوح- اتم ما ابتدأ به طارق وموسى من فتح الاندلس، وهذه امور معروفة في سبيل كشف الصفات المدحية، وما تعطيها من شجاعة ومنعة تقتضيها طبيعة الظرف الانسي الذي قيلت فيه التصيدة، ولذا ربما لا تتفق على نحو كبير مع من تحدث عن الابيات السابقة من ان الشاعر في مدحه كان (مبرزاً رؤية هؤلاء الى التطلع نحو التوسع الامبراطوري وامتلاك الاراضي لان الموحديين تميزوا طيلة تاريخهم الحربي

(١) ديوانه: ص ٨٦.

(٢) بناء المكان ودلالاته في رواية الحرب: عبد الله ابراهيم، مجلة افاق عربية- بغداد، ١٢٤، ١٩٨٧، ص ٥٥.

(٣) ديوانه: ص ٨٧-٨٨.

(٤) ينظر: تأريخ المن بالامانة على المستضعفين، ص ١٣٠، كتاب معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار: لسان الدين الخطيب، تحقيق: د. محمد كمال شبانه، مطبعة فضالة- المحمدية، الامارات- المغرب، ١٩٧٦، ص ٨٢-٨٣. وذكر ابن بطوطة (٧٧٩هـ) انه اول مشاهد في بلاد الاندلس: ينظر رحلة ابن بطوطة، تحقيق: د. عبد الهادي التازي، اكاديمية السلطنة المغربية- الرباط ط ١٩٩٧، ٢١١/٤.

بتوجيه الصراع لصالحهم من خلال اصرارهم على تحقيق النصر ومقاومة كل من خالفهم في افكارهم او عارض دولتهم^(١)

بعد احداث معركة فحص بلقون الماضية ، وقعت حادثة بطليوس سنة (٥٦٤هـ) والتي تحالف فيها فرناندو الثاني ملك ليون^(٢) مع الموحدين ضد البرتغال وفيها انتصر الحليفان الغزب والقشتاليون وتم انقاذ بطليوس من السقوط وقيلت اماديج هنسا وهناك لا تخلو من ذكر العزة لامير المسلمين ولجيشه^(٣) ولكن هذا الامر -امر التحالف- لم يدم طويلا فسرعان ما انقلب فرناندو الثاني على الموحدين، وبدأ بغزو اراضي الاندلس ، وعاث فيها الدمار والخراب مما استاء الامير الموحدى -ابو يعقوب- له، فجهز حملة لمحاصرة مدينة المبيطاط- مقر العدو- الذي اضطر للدفاع عنها بكل قوته ومنع جيش الموحدين من فتحها^(٤)

وعلى الرغم من ان هذه الحملة فشلت -تاريخيا- الا انها دونت انتصارات غني مظانها الادبية، اذ يورد لنا صاحب زاد المسافر ابياتا لابي علي بن عمر الاثيري (ت ٥٤٠هـ) يذكر انتصار المسلمين واهانة الشرك واهله، مستشهدا بقصة قديمة جرت للنعمان بن المنذر من قتلة ملك الحيرة في ساباط المدائن بأمر من كسرى^(٥) مضيئا النصر بهذا الرمز التاريخي الذي قد يتكرر من عدو الف المداينة والمزاوجة في رأيه، والخديعة والمكر في تصرفاته فيقول:

دارت رحى الهلكات بالسبباط
وأهين فيها الشرك أي اهانة
ان لم تقم فيها قيامة ملكهم
واصارها وطء الجياد هزيمة
لولا خروج الفصل عن معتاده
ولعاینوا من اخذهم بذنوبهم

وسطا بها ريب الزمان الساطي
شفعت كربه هياطها بمياط
فلقد رأوا جملا من الاشراف
سوداء معتبرا لعيسن الواطي
لم يمهلوا مقسدار سم خياط
ما عاین النعمان من ساباط^(٦)

(١) ادب البطولة في شعر ابي العباس الجراوي : محمد القاضي، مجلة المورد، مج ٢٦ع ١، ١٩٩٨، ص ٢٤.

(٢) ينظر: عصر المرابطين والموحدين: ص ٣٨.

(٣) ينظر: تاريخ المن بالامانة: ص ٤٠٧-٤١٢.

(٤) السبباط مدينة بناها فرناندو الثاني في مملكته البرتغال، وجعلها قاعدة للاغارة على اعدائه. ينظر: عصر المرابطين والموحدين، ص ٣١، والفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ١٥١/٢.

(٥) ينظر: الكامل في التاريخ: ابن الاثير (ت ٦٣٠هـ)، دار صادر- بيروت ١٩٦٥، ٤٨٢/١.

(٦) زاد المسافر : ص ١٠٢، وينظر : ديوان الجراوي : ص ٣٣.

ان هذا النص اقرب الى فن النظم فهو وثيقة تاريخية لم نر فيه خيالا او ابتكارا او صورا فنية، بل هو يقرب الى النثرية التي تسرد واقعة حدثت في زمن انقضى، وممكن اندرس.

ان مثل هذه النصوص^(١) قد تدفعنا الى الاستطراء المزكم، ومن ثم الى حريان سمات البحث في واد اخر بعيدا عن مجراه الذي سار عليه في ما مضى من عنوانات تهتم بدراسة المكان ووصفه والبحث عن سماته ودلالاته داخل النص الشعري الاندلسي، ولذا سنركز الحديث من هنا على واقعتين اثنتين كان لهما الاثر الكبير في التاريخ الموحي ومن ثم الاندلسي، وشكلتا مادة دسمه النصوص التاريخية التي تحدثت عند دولة الموحدين في المغرب والاندلس وهاتان الواقعتان هما: وقعة الارك (سنة ٥٩١هـ) ووقعة العقاب (سنة ٦٠٩هـ).

الاولى^(٢) ومن حيث الاهمية والنتائج التي تركت اليها تعد بحق المعركة الثانية الكبرى في الاندلس بعد موقعة الزلاقة الشهيرة، وحدثت هذه المعركة في عهد المنصور الموحي (ت ٥٩٥هـ)^(٣) في سهل واسع يقع قرب قلعة رباح الشهيرة^(٤)، ضد جيش النصراني الذي كان يقوده الفونسو الثامن ملك قشتالة.

وكان السبب الاول لاشتعال فتيل الحرب هو هجوم الملك النصراني على المدن الاسلامية بعد خرقه للهدنة التي عقدها مع المنصور منذ سنة ٥٨٦هـ. فسار المنصور ضد القوات النصرانية بجيش نظامي يتمثل في الموحدين والحشود العربية والبربرية من الاندلس، وانتهت المعركة بهزيمة الفونسو فدخل حصن الارك فاحاطت به القوات

(١) ينظر في بقية حروب الموحدين: تاريخ المن بالامانة: ص ٢٤٥-٢٥١، الروض المعطار: ص ١٠٦-١٠٧، عصر المرابطين والموحدين: ص ٩٩-١٨٨. الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ١٥٣/٢-١٥٨.

(٢) راجع عن اخبار هذه المعركة: عصر المرابطين والموحدين: ص ١٩٦-٢١٣، للتاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص ٥٦٤، معارك العرب في الاندلس: بطرس البستاني. منشورات دار المكشوف، بيروت، ط ١، ١٩٥٠، ص ٦٣-٨٠، الفتن والحروب واثر هاتين الشعر الاندلسي: ١٥٩/٢-١٦٨، معركة الارك - نزوة جهاد المرابطين في الاندلس- د. مزاحم علاوي الشاهري، مجلة المورد، بغداد، مج ٢٥، ع ٤-١٩٩٧، ص ٤٦-٤٧.

(٣) المنصور هو ابو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، احد خلفاء الموحدين، تولى الخلافة سنة ٥٨٠، وهو المع خلفاء الموحدين سياسيا وادريا وعسكريا. ينظر: المعجب في اخبار المنسوب: ص ٢٣٦-٣٧٠، اعمال الاعلام: ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٤) ينظر: الروض المعطار: ص ٢٧.

الموحدية ثم خرج من الحصن فاضرمت القوات الموحدية النار بالحصن... ثم زحفت القوات الموحدية وهي تطارد فلول الفونسو المنحدرة حتى وصلت الى جبل سليمان ثم رجعت الى اشبيلية حيث امر المنصور ببناء جامعها الكبير تخليدا لانتصاره.^(١)

لقد تردد صدق المعركة في المصادر التاريخية كثيرا حتى حددت بيومها وشيرها في ٩/شعبان من سنة ٥٩١هـ^(٢)، وهذا ما يدل على اهمية هذه المعركة، وسعة الفرحة بانتصار المسلمين ضد اعدائهم، ف(قد اهتزت الاندلس من ادناها الى اقصاها لهذا الانتصار العظيم)^(٣).

اما على مستوى المادة الشعرية فمع ان من المتوقع ان يقال فيها شعر كثير كما حدث في ادب الزلاقة الا ان ما وصل منها ربما لا يمثل جميع ما قيل، وانشد امام المنصور، ويسوق لنا المقري تعليلا لهذه القلة من المادة الشعرية مفاده ان المنصور لم يستمع في الاغلب لانشاد الشعراء والمهنتين، ولم يضل احدا منهم بشئ الا نادرا^(٤)، وربما احجم الكثير من الشعراء عن انشاده والسعي اليه لمدحه وتدوين هذه المعركة الكبيرة وتسجيل انتصارها الباهر.

لكن ابا العباس الجراوي الذي (عاش احداث تلك الواقعة العظيمة فسجل اياها ومواقعها ، فنطق لسانه بايات من النصر وعبر عن بسالة البطل والمقاتلين في اداء حسي معبر ودقيق)^(٥) يبدأ قصيدته واسماً تلك الواقعة بالفتح، الذي اعيا ان يوصف نظما وشعرا ومن ثم دخول المسلمين في بشرى وسعادة، وكيف تهللت الدنيا عموماً لهذه الفرحة، وكيف تفرقت الاخبار تنشر اصداء الواقعة وما حدث فيها من نصر مبین ، فيقول:

(١) ينظر: المعجب في اخبار المغرب، ص ٣٧٠، عصر المرابطين والموحدين: ص ٢٣٠، وفيه ان المنصور اتم منارة الجامع الاعظم باشبيلية.

(٢) ينظر: عصر المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ١٩٦، التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص ٤٦٤، معارك العرب في الاندلس: ص ٧٩.

(٣) القتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ١٦٠/٢.

(٤) ينظر: نفع الطيب: ١٧٢/٤.

(٥) ادب البطولة في شعر ابي العباس الجراوي: ص ٢٥.

هو الفتحُ أعياء وصفهُ النظمُ والنثرا
وانجدَ في الدنيا وغارَ حديثُهُ
تميزَ الاحجالِ والغررِ التي
وصيرت المرقى اليه صوارم
وعمت جميعُ انمسلمينُ بهِ البشرى
فراقتُ بهِ حسناً وطابتُ بهِ نثرا
اقلُ سناها يبهرُ الشمسُ والبدر
كثيرُ بها القتلى قليلُ بها الاسرى^(١)

ومتلما نلحظ ان اهمية الحدث عند الشاعر جعلته يلج الموضوع مباشرة ولاشك ان الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستقرار في بداية الابيات (هو الفتح)، كانت حرة بالاستعمال في مثل هذا الحدث بالنسبة للمتكلم وفي مثل هذا الموقع بالنسبة للنص، ولذا جاءت الابيات بعدها لتكشف لنا عن سر هذا التيقن العالي وكبره عند المتلقي بعد ان بان ووضح في نفسه ملقيه.

ومن خلال الاضاعة التاريخية للاحداث الاسلامية، يرمي الجراري الانفوش باسباب الهزيمة وانه كان كابليلس عندما اغرى قريشاً بالحرب على جماعة المسلمين، وان ما حدث لهم كان مثل ما حدث لتلك القبيلة واعوانها في معركة بدر الكبرى. هـاك قوله:

لقد اورد الانفونشُ شيعته الردى
حكى فعل ابليلس باصحابه الألى
وساقهم جهلاً الى البطشة الكبرى
تسبراً منهم حين اوردهم بدر^(٢)

وبلا ريب ان يعدد الشاعر الى الصورة المفزعة واللفظة الشديدة وهو يصف حركة الحرب، وساحات الوغى بعد ان ذكر اهمية الحدث، والمواقف البطولية التي قام بها الجيش الاسلامي وقائده، يقول واصفا الحرب ومكانها:

ودارت رحى الهجاء عليهم فاصبحوا
يطيرُ باشلاءٍ لهم كل قشع
فكيف رأى المغتر عقى اغتراره
وشيماً طحيناً في مهبط الصبا ينرى
فما شنت من نسي غدا بطنه قبراً
وكيف رأى الغدار في غيه القدر^(٣)

(١) نيولنه: ص ٩٠-٩١.

(٢) م-ن: ص ٩١.

(٣) م-ن: ص ٩٢.

وينتهي الشاعر الى البطل المسلم قائد المعركة (وكانت صور البطل المقدس والمعركة والاستبسال من اجل الاستشهاد والصمود والانتصارات من اهم ما برع في رسمه. واضفى عليه كثيرا من سمات الفخامة والزخرف البياني فجاء شعره الحربي مليئا بالصور الحية من ساحات الوغى بالصوف الدقيق لحركاتها)^(١) اذن هناك قوله في المنصور الموحد بطل هذه المعركة:

مَعزُّ الْهَدْيِ مَعْلِيهِ حَامِي ذِمَارِهِ
مَعَانِ بِأَمْدَادِ الْمِلَائِكِ مَنزَلُ
رَأَى السَّبِيلَ شَتَّى فَاتَّقَاهَا تَوْرَعًا
اِغَاثَ بِهِ اللهُ الْبِلَادَ وَاهْلِهَا
يَفْضُرُ فِيهِ كُلُّ مَثْنٍ وَإِنْ غَلَا
فَلَا زَالَ بِالنَّصْرِ الْإِلَهِيِّ يَفْتَضِي
يَجِيرُ عَلَى اِعْدَائِهِ الْبِرِّ وَالْبَحْرَا
مِنَ الْمَعْقَلِ الْاِسْمَى مَنَوانِهِ قَسْرًا
وَسَارَ عَلَى الْمُتَلَيِّ فَيَسْرُ لِلْيَسْرَى
وَصَيَّرَ غَايَاتِ الْفَتْوحِ لَهُ ذُخْرًا
وَاجْرَى إِلَى اِقْصَى نَهَائِيهِ الْفَكْرَا
بِشَائِرِ يُحْصَى قَبْلَ اِحْصَائِهَا الْقَطْرَا^(٢)

ان صفات البطل هنا هي صفات البطولة العربية التي عرفها العرب قبل الاسلام، وزادت وتألفت في عصر صدر الاسلام والعصور الاخرى بما تمليه الاخلاق الاسلامية لحميدة على قائد المعركة، انها (البطولة الواقعية، بطولة يرتفع فيها صاحبها عن الاشخاص العاديين من حوله بقوته وبسالته واقدامه وجرأته وتغلبه على اقرانه وهو منهم، من ذات انفسهم لا من سلالة الالهة وانصاف الالهة)^(٣)

ولابي حفص عمر بن عبد الله السلمي القرطبي (ت ٦٠٣هـ)^(٤) في هذه المعركة ما اورده ابن سعيد في الغصون الياضعة، وهي لا تخرج عما قدمنا من ذكر يوم المعركة ووسمه بالفتح ومن ثم مدح المنصور وتيننته بالنصر^(٥).

(١) ادب البطولة في شعر ابي العباس الجراوي: ص ٢٥.

(٢) ديوانه: ص ٩٤-٩٥، وينظر: م.ن: ص ١٣٢-١٣٥.

(٣) البطولة في الشعر العربي: ص ١٣.

(٤) ابو حفص عمر بن عبد الله بن محمد عمر السلمى، القاضي الاديب. كان فقيها علامة وفي النخلة والادب اندر علامة. ولاء المنصور الموحدى قضاء اشبيلية. فسكرت فيها سيرته وحدثت سريره وسات وهو بها قاض سنة (٦٠٣هـ) ينظر الغصون الياضعة: الترجمة السابعة، ص ٩١-٩٧، فنج الطيب: ٢/٢٠٩ هامش (١).

(٥) الغصون الياضعة: ص ٩٦-٩٧.

اما علي بن حزمون المرسى (كان حيا سنة ٦١٤هـ)^(١)، فتتارل هذه الحادثة بقصيدة طويلة تكونت من اربعين بيتا، وضمت لوحات عدة، ولا شك في ان الخبيب الذي اختاره الشاعر ومن ثم حرف السين كقافية- ذلك الحرف الصغيري، جعل القصيدة كانشودة تتشد بنشوة راقص، او بصوت شادن فانت تنتقل مع الابيات بفرح وطرب بما تبيته الامور الصوتية التي ذكرناها، هاك بعضها:-

حيثك معطرة النفس	نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار وما تمهم	إن الاسلام لفي عرس
أمام الحق وناصره	طهرت الارض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى	فدنا التوفيق لمتمس
وصدعت رداء الكفر كما	صدع الدجور سنا قيس
لاقيت جموعهم فعدوا	فرصا في قبضة مفرس ^(٢)

ولاغرو اننا سنبقى ننتد حتى نهاية النص، بما نرتمه علينا الانغام الموسيقية الرتيبة التي يتشكل منها. ولكن، لابس ان نقنطع جزءا اخر من القصيدة، وفيه يصور الشاعر سبايا العدو اللواتي سقطن اسيرات في حضرة المنصور، الذي رسمه بالضراغم الشرس امام تلك الظباء، في صورة حية... فيقول:

وبكاء عقائل هاتفة	كالورق ينحن مع الشمس
برزت وكأن ذوائبها	اذناب رومحة شمس
ترنو كظباء الرمل على	وجل لضراغمة شرس
قد كن مها أنس فعدت	تحت الرايات بلا أنس

وعلنا بعدنا قليلا عن صلب موضوعنا المكان بمثل هذه الابيات التي لا تخلو من رسد لمظاهر الامكنة التي تنوعت داخل النص، بنية ودلالة، فعود لنذكر ان خاتمة النص كانت مكانية بحتة عندما ذكرها الشاعر الاندلسي واراد منها الاعتصام بهذا الخليفة و التزام

(١) علي بن حزمون من اهل مرسية كان صديقا للمراكشي صاحب المعجب. قال فيه: (نم في الادب و اتسع في انواع الشعر اشهر بمعارضته لكبار الموشحين وله في الهجاء بدلا نظاول على طريق الحطينة. حس انه نال عدد من قضاة المغرب وعماله وولاته جاها وثررة). المعجب في تلخيص اخبار المغرب: ص ٢٧٠.

(٢) م: ن: ص: ٣٧٠-٣٧١.

اوامره بعدما حكمت اسيافه الامصار، ومضت معاركة امثالا تحتذى من قبل الروم وغيرهم، فيقول:

أجزيرة اندلسٍ أعتصمى بإمام الأمسةٍ وأحترسنى
أرعاك حراسته ملكك جبريل لئه احد الحرس

لقد استحققت وقعة الارك خلودا ادبيا، فذكرها حازم القرطاجني (ت: ٦٨٤هـ) في مقصوده الشهيرة، فقال في جيشها:

قادوا إلى اندلس كتاباً امامها النصر العزيز قد قدي
وجالوا شط المجاز سبقاً تعدو الى غزو الاعادي الجمزي
وصبحوا الأرك بجيش غط في اذيته افنش لمنا ان غطا
وخلفوا بالبيض قرص الشمس في أراهجه حتى رأوه قد صننا
فوقب الغاسق عن يوم به كيوم ذي قار، ويوم الوقبي^(١)

اما لسان الدين بن الخطيب مؤرخ الدول، ومدون احداثها في الاندلس والمشرق فقال: في الارك:

وقام بالامر ابنه يعقوب وعصمته المنتظر المرقوب
اوقع بالاعداء يوم الأرك ولم يمل من بعدها لترك
فلقى الروم به شدة انداء وعات فيها صابراً وواردا^(٢)

انها موقعة جهاد، ومكان ابتلاء صبر فيه المسلمون دفاعاً عن كرامتهم ودينهم وارضهم فرحم الله يوسف بن تاشفين قائد الزلاقة، ورحم الله يعقوب الموحد من قائد الارك، انهم رجال باعوا انفسهم لله سبحانه فاستحقوا خلودا على مر الازمان - تاريخا وادبا وصبرا - وبقيت امكانهم شاهدا على اثارهم وافعالهم في سبيل الاخرة ... فنعم عقبى الدار.

(١) قصائد ومقطعات صنعة القرطاجني، تحقيق: د. محمد الحبيب ابن الخوجة-تونس، ١٩٧٢. ص ٦٦. يوم الوقبي: يوم لبني العنبر وبني يربوع وبني مازن بن مالك على بكر بن وائل في الاسلام. ينظر معجم البلدان: ٣٨/٥.

(٢) شرح رقم الحل في نظم الدول، ابن الخطيب، تحقيق: د. عدنان درويش، دمشق، ١٩٩٠. ص ١٩١.

ان الحدث جسيم، وما حصل في هذه المعركة بقي حاضرا ازاء الشعراء، ولذا صب في بوتقة الابداع الفني للشاعر الاندلسي، الذي ما فتأ مدونا امينا لما حدث في بلاده ولاسيما وقد تأخر النصر قليلا، وعصفت بالامة رياح الشر من كل حدب وصوب . لقد ارتبط ذكر هذه المعركة بذكر الاندلس ككل، وهذا الترابط الروحي بين المكان-الاندلس- وبين الشاعر - الانسان المبدع- ومن ثم في نتاجه من سمات المكان الاساسية التي يتركها في نفس ساكنيه فهو- أي المكان- (جزء من تكوين الانسان لذلك يبقى لصيقاً بالتاريخ بالحضارة شاهداً حياً على التطور والتغير سجلاً أميناً لانفعالنا وافعال من سبقونا)^(١)

لئن كانت وقعة الارك قد حققت مثل هذا التفاؤل ، ومصدر ذلك النجاح والندح فقد نسخت هذه الصورة تماماً من ذهن الاندلسيين والموحدين -خصوصاً- الى الابد عندما حدثت وقعة العقاب^(٢)، اذ بدأ بعدها مصير الاندلس يهتز بيد القدر، وعليها كانت الضربة الاولى والحاسمة لانتهيار دولة الموحدين ثم انهيار الأندلس ككل . دارت رحى المعركة بين الجيوش الإسلامية بقيادة الناصر الموحد^(٣) والجيوش النصرانية وعلى رأسها الفونسو الثامن ملك قشتالة، في يوم الاثنين ١٥ صفر ٦٠٩هـ . وانتهت بسحق جيوش المغرب والاندلس سحقاً منكرًا .

وقد اهتمت المصادر التاريخية بهذه المعركة كاهتمامها بسوابقها من المعارك كالزلاقة والأراك، وحللت اسباب الانتكاس فيها، ووصفت خطواتها وصفاً دقيقاً، وبينت نتائجها، ولسنا بحاجة الى تكرار ما قيل ولكن من المهم جداً ان نقول ان اهم نتائج المعركة (انها قضت على سمعة الموحدين العسكرية نهائياً في الاندلس، كذلك كانت ضربة قاصمة للجيوش الموحدية في المغرب . واستولى الفونسو الثامن ملك قشتالة على كثير من المدن الاندلسية التي كانت بحوزة الموحدين)^(٤)

(١) اشكالية المكان في النص الأدبي: ص ١٥٩ .

(٢) عن المعركة راجع: المعجب في اخبار المغرب: ص ٤٠١، اعمال الاعلام: ص ٢٧٠، عصر المرابطين والموحدين: ص ٢٨٣-٣١٧، التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص ٤٩٠، معارك المسلمين في الاندلس: ص ٨١-٩٥، تأريخ الاندلس السياسي- دراسة شاملة- محمود مكي، بحث في كتاب "الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس": تحرير: د. سلمي الجبوسي- بيروت، ١٩٩٨، ١/١٢٥ .

(٣) توفي الخليفة الناصر (٦١٠هـ) كمداً على هذه المعركة. ينظر: المعجب في تلخيص اخبار المغرب: ص ٤٠٣، اعمال الاعلام: ص ٢٧٠ .

(٤) عصر المرابطين والموحدين بالمغرب والاندلس: ص ٣٢٠ .

اما عن المادة الشعرية التي قيلت في العقاب، فاننا لم نعثر على قصائد فيها وفي نتائجها ، او لشعراء خاضوا غمارها مع الناصر، وان ما نقله د. جمعة شيخة في كتابه الموسوعي لايمت بصلة إلى المعركة او احداثها او تفاصيلها لامن قريب ولا من بعيد^(١) لان صاحب كتاب المن بالامهة على المستضعفين الذي دون اغلب اخبار الدولة الموحدية، ومعاركها وخذل قادتها كان قد توفي سنة (٥٩٧هـ) وبذا يكون بعيداً عن العقاب التي وقعت بعد وفاته باثنتي عشرة سنة، فما نقله د. شيخة من اشعار لا يخص هذه المعركة وما حدث فيها.

الا اننا قد نضع اليد على اسباب هذه المعركة في مقطوعة وردت في شعر ابي اسحاق ابراهيم بن الدباغ الاشبيلي (ق٧هـ) ، اتكأت هذه المقطوعة على الحوار بين الشاعر وبين رمز المرأة السائلة فتبادل معها الحديث مما دار في فكره من امور حول هذه المعركة، وما آلت اليه من نتائج ، وقد قدم المقرئ- الاديب الناقد- هذه الابيات بقوله: (وما احسن قول ابي اسحاق... في هزيمة العقاب باشبيلية):^(٢)

وقائلة: اراك تطيل فكراً كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها: افكر في عقاب غدا سبباً لمعركة العقاب
فما في ارض ادبلس مقام وقد دخل البلا من كل باب^(٣)

وربما تكون الاسباب التي اختفت وراءها ظهور الشعر الحربي لهذه المعركة، ما يعود إلى الحالة النفسية التي رافقت الشعراء وهم يرون انسحاق جيشهم وهزيمته، ومن ثم سقوط مدنهم، وتحويلها إلى ركام ورماد وخراب وعلى اية حال، بقيت اصداء هذه المعركة إلى ما بعد عصر الموحدين، فنرى ابن الخطيب بزج باحداثها في تاريخه للدول، فتكلم عنها في ازجوزته، مبينا عظمتها وبعض نتائجها:

(١) ينظر: الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ١٧٤/٢-١٨١.

(٢) نفع الطيب: ٤٦٤/٤.

(٣) نفع الطيب: ٤٦٤/٤.

محمّدٌ وهُوَ الامامُ الناصرُ
 حتّى إذا استقلّ بالأمورِ
 جرّاً وشيكاً غيمةُ الصدرِ
 كانت عليه وقعةُ العقابِ
 وعظمت من اجلها المعرّةُ
 ثم اتاه الحينُ في الآثارِ
 ومات إثرها وقد كان استعدّ

قد كلّ عن فضلِ جواه الحاصرُ
 وبسادر اللجّةِ بالعبورِ
 هذا بحكمِ القدرِ المقدورِ
 حكّمَ فيها السيفُ في الرقابِ
 ولم يكن من بعدها كسرّةُ
 وكان يسعى في طلاب الثمارِ
 ولم يقم من بعدها حتّى اقتعد^(١)

إذا ملّذنا الى الاغراض الشعرية التقليدية كالمدح والثناء والتهنئة. ووقفنا على قصائدها وجدنا بعض سمات الامكنة الحربية للمواقع والمنازلات التي خاضها المسلمون في الاندلس، لان هذه الاغراض لم تقف عند حدود المعاني التقليدية بل: اتسعت لتشمل مناحي اخرى تكمن في تخليد البطل الفارس المنتصر وثناء شهداء الحرب، وابرار الاطار العام لحركة التاريخ الحربي والجهادي للامة.^(٢) ومنلما وقفنا على اسابيح المرابطين في قاداتهم حري بنا ان نكمل حديثنا عن المكان الحربي في عصر الموحدين عن اماديه او الاغراض الاخرى التي عثرنا عليها، في طور اخضاعها لسمات هذا المكان وخصائصه في هذا العصر.

الرصافي البلسي يمدح عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين، عند نزوله بحب الفتح عند اجازته الى الاندلس وقيل ان الرصافي حين انشد الممدوح هذه القصيدة لم يكمل عشرين سنة من عمره^(٣) فيقول مبتدئاً مطلعها ومقطعها الاول باضاعة دينية رمزت لقصة سيدنا موسى عليه السلام مع جبل الطور:

لو جنت نار الهدى من جانبِ الطورِ
 من كل زهراء لم ترفع ذوابتها
 قبست ما شئت من علم ومن نورِ
 ليلاً لساها ولم تشيب لمقرورِ
 فيضية القدح من نور النبوة أو
 نور الهداية تجلو ظلمة السور^(٤)

(١) رقم الحلل: ص ١٩٢.

(٢) ينظر: شعر الحرب في العصر العباسي: ص ١٤٧.

(٣) ينظر: المعجب في تلخيص اخبار المغرب: ص ٢٩٠.

(٤) ديوانه: ص ٨٧، وتنظر الاية (١٠) من سورة طه.

والقصيدة طويلة، وتضم لرحات هيكلية تصب في خدمة المديح، وسنركز حينئذ على أهمية المكان -موضوعنا الاول- وترابط الممدوح مع جبل الفتح -جبل طارق- الذي من اجله انشأ النص وقيلت الابيات. يقول عن هذا الجبل، مازجا الصفات الحربية باخرى طبيعية بثالثة تشوبها الحكمة، وتسيل منها الموعظة:

لله ما جبلُ الفتحين من جبلٍ معظمُ القدرِ في الاجيالِ مذكورِ
من شامخِ الأنفِ في سخائه طلُسُ له من الغيمِ جيبٌ غيرُ مزورِ
مُعَبَّرًا بذراه عَن ذرئِ مَلِكِ مستمطرِ الكفِّ والاكشافِ ممطورِ
تُسمي النجومُ على اكليلِ مفرقه في الجوّ حائمةً مثلُ الدنساتيرِ
وربما مسحتهُ من ذوائبِها بكلِّ فضلٍ على فوديه مجرورِ^(١)

هل تلاحظ كيف اسبغ عليه اسباب التفاؤل والعظمة ؟ ثم اراد له وصفا طبيعياً مغايراً لما عرف عن الاجيال الاخرى عندما جعل النجوم تسمي على ساحاته المزهرة، وارضه الموردة!! وفي اطار فلسفي يضفي عليه صفات الرزانة والحكمة من تقلب الايام وتصرف الدهور، التي مالبثت تغير الخلق من حال والى حال، ومن شعور الى شعور . وهو - الجبل- طويل الصمت، مغرق في التفكير بسكينة ووقار...

وإردٍ من ثنياه بما أخذت منه معاجمُ أعوادِ الدهاريرِ
محنكُ حلبِ الأيامِ أشطرها وساقها سوقُ حادي العيرِ للعريرِ
مُقَيِّدُ الخطوِ جِوَالِ الخواطرِ في عجيبِ أمرِيه من ماضٍ ومنظورِ
قد واصلَ الصمتَ والإطراقَ مُفتكراً يادي السكينةِ مُغفراً الاساريرِ
كانتْه ملامدُ مما تعبَّدَه خوفاً الوعديينِ من دكِّ وتسييرِ

اما عن مكانة هذا الجبل ، وفضله على سائر الامكنة الاخرى فلأن الممدوح وطأه واقام فيه وبذا يتميز المكان بمن حل فيه وسكنه لاسيما خليفة الموحدين وباني سجدتهم الاول هاك يمدحه ويبين فضل المكان -الجبل- بهذا المدح:

(١) ديوانه: ص ٩٢، وذكره بصيغة المثني من باب التفاؤل .

كفاهُ فضلاً أن انتابت موطنه
مُستثنأً بهما ریح الشفاعة من
ما انفكَّ أمل امرٍ منه بين يدي
حتى تصدَّى من الدنيا على رمقٍ
نعلا مليك كريم السعي مشكورٍ
ثرى إمام بأقصى الغرب مقبورٍ
يوم القيامة محتوم ومقدورٍ
يستجز الوعد قبل النفخ الصور

كل هذه الصفات المدحية ولداها المكان الذي وقف عليه الممدوح وهو جبل طارق فهو
مكان طبيعي يرمز الى الشموخ والعظمة والكبرياء وهو كدلالة تاريخية اول ما وقف
عليه العرب عند فتح الاندلس واما عن دلالاته الواقعية فتتمثل في عبور الممدوح الى
الاندلس وان هذا العبور قد يكون فاتحة خير لانتصارات قد تأتي بعده ولذا لا ريب من
ان مانرى الحرب هنا وهناك ، فعن سيف الممدوح قال:

لبارقٍ من حُسامٍ سلَّةٌ قدرٌ
إذا تالَّقَ قيسياً اهأباً به
ملك أتى عظماً فوق الزمان فما
بالحرب من أفتقٍ البيض المشاهير
إلى شفا من مضاع الدين مورتورٍ
يمر فيه بشئ غير محفورٍ

اما عن جيشه، فهو مميز من حيث قوته، ملفت المواكب، كثير الطعن والضرب بلا
هوادة او تقصير:

مميز الجيش ملفتاً مواكبهُ
من الألى خضعوا قسراً له وعنوا
من بعد ما عاندوا أمراً فماتركوا
بقية الحرب فاتوها وما بهم
لا ينكر القوم مما في أكفهم
من كلّ مثلولٍ عرش الملكٍ مقهورٍ
لأمره بين منهيٍّ ومأمورٍ
إذ امكن العفو مسوراً لمعسورٍ
في الضرب والطعن سيماء لتقصيرٍ
بيض مفاليلٍ أو سُمسٍ مكاسيرٍ

وتأتي خاتمة النص، لتزيد النص تماسكا وتتركه كوحدة موضوعية متكاملة على طول
آيائه، وتعدد لوحاته:

وإنما هو سيفُ الله قلدهُ أقوى الهداةِ بدأً في دفعِ محذورِ
فإن يكنْ بيدِ المهدي قائمهُ فموضعُ الحدِّ منه جدُّ مشهورِ
والشمسُ إنْ ذكرتْ موسى فما نصبتُ فتأه يوشعُ قمعَ الجبابيرِ^(١)

فموضوعياً انتهى الشاعر الى المعاني الدينية لهذا الممدوح، بجعله سيف الله بما عرف عن الموحدين عموماً من انهم اصحاب دعوة دينية جهادية قبل كل شيء. وموضوعياً ايضاً جعل من صفات الممدوح المهمة الوفاء، للمهدي شيخ عبد المؤمن ومن جعله بهذه المكانة من الرفعة والمجد وهو في هذا الوفاء يعود لقصة سيدنا موسى وقناه يوشع الذي تولى امر القيادة من بعده وقمع جبابير الارض في عصره. ويوفق الرصافي فنياً؛ عندما عمد الى البناء الدائري، فختم النص بمنثل ماابتدأ به، فقد اضاءت قصة سيدنا موسى - عليه السلام - عناصر الوفاء السابقة، فزادت في حيوية النص الفنية وابتقت عليه صنعة وتركيباً وتميزاً.

ومدح ابو العباس الجراوي (اديب المغرب على الاطلاق في زمانه)^(١). المنصور الموحدي بقصيدة صور فيها جبن العدو، وخوفه، بل، ان الموت ارحم عليه من عيش صاحبه الهم، ويرافقه النكد يقول:

عدوكم بخطوبِ الدهر مقصودُ وأمركم باتصالِ النصيرِ موعودُ
وملككم مستمرُّ ماله أمْدُ مؤقتٌ دونِ الحشرِ محدودُ
ألقى على كلِّ جبار كلاكه كأنه وهو في الاحياء مفقودُ
وهبه عاش أليس الموت أرحم من عيش يُخالطه همٌّ وتكيدُ؟^(٢)

ومثل هذه الاوصاف لاماديج قادة الموحدين وامرائهم اعتمصم بها بعض الشعراء في اماديجهم في هذا العصر في المغرب والاندلس^(٣).

(١) ديوانه: ص ٨٧-٩٧.

(٢) النصوص البائعة: ص ٩٩.

(٣) ديوانه: ص ٦٣-٦٤.

(٤) ينظر: ديوان الموحدي: ص ٢١، ٨١، شعر ابن مرج الكحل (العذري): ص ٥١، ديوان ابن سهل: ص ١٥٨-١٦٠، ص ٣٤٢-٣٤٣، ديوان ابن الابار، ص ٢١٩.

لم يكن غرض المديح هو الغرض التقليدي الوحيد الذي رافق ذكره وصفاً للامكنة الحربية، بل: وغرض التهئة الذي ارتبط بمعان سياسية عرج على ذكر المكان الحربي أو السياسي الذي فتحه الامير، أو أعاده الى حظيرة الاندلس بعد سقوط واحتلال، فحازم القرطاجني يهنئ ابا زكرياء الحفصي صاحب تونس، بفتح حصص- اشبيلية، واسما ذلك الفتح بالبشرى، وان فتح اشبيلية مقدم على سائر بلاد الاندلس، فيقول:

ولفتح حصص في الفتوح مزيةً فيحق فيها أن يسمي الأكبر
مدت اليك يد المطيع وبايعت منك الأمام المرتضى المتخير
وهي العقيلة حسنها مستاهلٌ أن يصدق الصنع الجميل ويهرأ
فقبلتها لا لازدياد ضخامةٍ بل رغبةً في ان تثاب وتؤجرا^(١)

وفي الرثاء ايضا يتجسد المكان الحربي فالشاعر برثي الشهداء والضحايا الذين سقطوا في المعارك التي خاضوها ويمكننا ان نعد قصيدة ابن الابار في رثاء شيخه ابي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكورعي الذي استشهد في موقعة انيشة، من القصائد الرائعة التي قيلت في تصوير المعركة ورثاء ابطالها.

وقعت معركة انيشة يوم الخميس ٢٠/ذو الحجة/٦٣٤هـ بين جيش بلنسية يقوده الامير زيان بن مردنيش^(٢)، وجيش ارجواني في محاول من المسلمين الاستيلاء على حصن انيشة^(٣) -قاعدة التصاري الحربية- وانتهت المعركة بهزيمة المسلمين هزيمة قادحة.

يبدأ ابن الابار مرثيته ببيان فضل الشهادة في سبيل الله، ومن ثم تحدث عن شهداء المسلمين الذين تقربوا الى الله- عز وجل- بارواحهم مجاهدين في سبيله وحماية دينه، ولاسيما الجمع الكبير من العلماء الذي استشهدوا في تلك المعركة:

(١) ديوانه: تحقيق: عثمان الكماك، دار الثقافة- بيروت، ١٩٦٤، ص ٥١-٥٣، وتظر: قصائد ومقطعات صنعة القرطاجني، ص ١٣١-١٣٣.

(٢) اخباره واخبار المعركة في: الحلة: ١٠٢/٢، اعمال الاعلام: ص ٢٧٢-٢٧٤، مصرع غرناطة: شوقي ابو خليل، دار الفكر-دمشق، ١٩٧٩، ص ١٦.

(٣) انيشة: على مقربة من بلنسية... ينظر: الروض المعطار: ص ٤١. وعن المعركة راجع: عصر المرابطين والموحدين: ص ٤٤٢، رساما (نكية انيشة).

هَمَّ الْقَوْمُ راحسوا للشهادة فَاغْتَدُوا
تَسَاقُوا كَوْوسَ الموتِ في حومةِ الوغى
مضوا في سبيلِ الله قدما كأنَّها
يرون جوارَ الله اكرمَ مَعْتَمِ
وما لهم في فوزهم من مَقاوم
فمالت بهم ميلُ الغصونِ النواعم
يطيرون في اقدامهم بِقِوادم
كذلك جوار الله اسنى المغناتم^(١)

ويمضي ابن الأبار في هذه الصرخة الباكية في الأبيات الأخرى مشيعا حوا من الحزن والجزع، وهذا ما ترمى إليه قصائد الرناء عامة، لتبصل الى المعركة التي حدثت فيها هذا الفزع العظيم، فترك تلك الاجساد اشلاء تعط، وانفاسا تطيب، وهو يربط بين الرسان والمكان لهذه الواقعة المشؤومة، فيقول:

اضاعهم يومَ الخميسِ حفاظُهم
سقى الله اشلاءً بسفحِ انيشة
وصلّى عليها انفساً طابَ ذِكْرُها
لقد صبروا فيها كراماً وصابروا
وكرههم فسي المأزقِ المتلاحم
سوافح تزجيجها تقالُ الغناتم
فطيبب انفسِ الرياحِ النواسم
فلاغروا أن فازوا بصفو المكارم^(٢)

انها عاديات الزمن ، وفجائع الدهر التي لاينجو من صرفها احد، انه سوء الحال وشكوى الايام التي لاتسمع ولاترحم:

وما هي الا غادياتُ فجائع
جلالُ دقّ الصبرِ فيها فلم نطيق
أبيت لها تحت الظلامِ كأنني
أغازل من برحِ الأسى غيرِ بارح
واعقدُ بالنجمِ المشرقِ ناظري
واشكو إلى الايامِ سوءَ صنيعها
تعبرُ عنها رائجاتُ مآثم
سوى غصّ اجفانٍ وعصّ أباهم
رمي نصالٍ أو لديغِ اراقم
وأصحب من سامى البكا غيرِ ساتم
فيغرب عني ساهراً غيرِ ناتم
ولكنها شكوى إلى غيرِ راحم^(٣)

انها شكوى دائمة باقية، انه بكاء متحسر متألم في دوام واستمرار، وما لعبته الأفعال المضارعة (أبيت، أغازل، أعقد، أشكو) من دور لايمكن تجاهله من اجل هذا الدوام والبقاء في هذه العواطف المشجبة التي خلفتها تلك المعركة واثارها ذلك المكان.

(١) ديوانه: ص ٢٧٦.

(٢) م: ص ٢٧٧.

(٣) م: ص ٢٧٨.

إذا ما وقفنا على المكان الحربي وانماطه في شعر بني الأحمر أو عصر مملكة غرناطة وجدنا سمات هذا المكان قد ارتبطت بالنكبات فالمكان عموماً هو هوية الإنسان ووجوده^(١) وعصر مملكة غرناطة آخر العصور التي أقام فيها المسلمون في الأندلس ، فبعد سقوطها بكأها العرب وحزنوا عليها ، كما بكوا من قبلها: طليطلة، قرطبة و اشبيلية... وغيرها من المدن اللواتي تملكها الأعداء المحتلون، و أعلنوا فيها شُرعيته ودستورهم .

بدءاً؛ ان (الشعر في كل أمة خاضع لتطور حياتها في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فهي التي تحدد مجراه ومساربه واتجاهاته، وهي التي تفرض عليه ما شاء من التغييرات)^(٢)، وان نظرة الى هذي النواحي مجتمعة في عصر بني الأحمر لتكفينا همنا إذا ما بحثنا عن أسباب سقوط المدن التي كانوا يمتلكونها أو أسباب سقوطهم سياسياً وعسكرياً.

لقد قامت دولة بني الأحمر على انقراض الدول الكبرى في الأندلس. وبهذا فني تقصر كثيراً عن غيرها من الدول في الحياة الاقتصادية، التي كانت تعرف قبل هذا العهد بالترف والبخ والاسراف ، هذا من جهة ومن جهة أخرى المستوى المعيشي الضيق التي مرت به الأندلس، غرناطة-خصوصاً- عقب المعارك التي خاضها المرابطون والموحدون، وتملك النصارى قواعدهم ومدنهم، وعاثوا فيها خراباً ودماراً، وهي مأساة أخرى تضاف الى النواحي الاقتصادية.

ومن الناحية الاجتماعية ، فما عادت تلك الأفراح تخص العوام قبل السادة والمحكومين قبل الحكام، كما عهدنا من قبل عصر بني الأحمر ، بل، ارتبطت الأفراح والاعياد بمراسيم المملكة، وبحياة الملك أو الأمير، أما باقي الشعب فهو مكبل بين صرخات الحروب وشطف العيش الذي اضطر الى نسيان أمور اللهو وترك المظاهر الترفيهية ، والوقوف على أهبة الاستعداد إذا ما نادى منادي الجهاد.

(١) ينظر: دلالة المكان في مخمسة مدن الملح: ص ١١.

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري؛ د. مصطفى محمد هذارة، دار المعارف-مصر، ط ٢: ٢٣٩، ١٩٦٩.

اما الناحية السياسية، فقد كانت تعاني الامرين سواء على صعيد الاوضاع الداخلية ام الخارجية فلقد كثرت الفتن^(١) والانشقاقات السياسية واتي على غرناطة من الحكام والامراء من لايعرف كيف يدير البلاد ويراعي ذمم الناس، ويوفي حقوقهم فـ(كانت النتيجة بالنسبة الى المجتمع الاندلسي، من الناحية النفسية انه اصبح يعيش خلال اغلب فترات تاريخه جو الرعب والفرع بين خطرين، التطاحن من الداخل، والعدو من الخارج)^(٢). وسنخرج هنا على اهم المعارك التي وقعت في هذا العصر بما حملت من نتائج وبينت من احداث كاشفين عن اهمية المكان الحربي، وسماته داخل شعر العصر الغرناطي، تاركين اسباب الفتن الداخلية واحداثها المأسوية- الداخلية والخارجية- للدكتور جمعة شيخة، الذي وقف عليها بموضوعية وانصاف،^(٣) وهي وقفة جديرة بان تراجع وكفيلة بان يحتذى حذوها الدارسون في كتاباتهم وابحاثهم.

من المعارك التي حدثت في زمن بني الاحمر، معركة المرج (٧١٨هـ)؛ وقد وقعت هذه المعركة في هضبة البيرة الكائنة بظاهر غرناطة في مكان يعرف بالمرج^(٤). وانتهت المعركة بانتصار المسلمين على ممالك قشتالة بقيادة شيخ الغزاة ابي سعيد عثمان بن ابي العلاء (ت ٧٣٠هـ)^(٥).

ابن الصانع (ت ٧٢٥هـ) يوثق هذه المعركة شعرا، في قصيدة ابتدأها بتهنئة الامير بفتحها، عندما قدم مع الوفود من اهل بلده. يقول في تهنيئته ومدحه...:

(١) لم يقف مصطلح الفتنة على الامور السياسية فقط بل، شمل المناحي الثقافية والادبية . وكفى بفتنة الحطيب ومقتله شاهدا على ذلك .

(٢) الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٢٤٣/٢-٢٤٤.

(٣) ينظر: م. ن: ١/٢٥١-٢٧٧، ٢/٢٤٢-٢٥٩.

(٤) المرج: مكان بظاهر غرناطة. ينظر: الاطاحة: ٤٣٧/٢. وفي احداث المعركة راجع: نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين: ص١٠٨، الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٢/٢٩١-٢٩٣.

(٥) راجع: اللوحة: ص٨٠، اعمال الاعلام: ص٢٩٥، روضة النسرين، ص١٩، وفيه وفاته (٧٣١) (ومنصب مشيخة الغزاة منصب عسكري تشكيلاته من المغرب-جنداً وقادة- المرابطين في ثغور غرناطة الشرقية والغربية)، مشيخة الغزاة ودورها في بلاد الاندلس: د. مزاحم الشاهري، المورد، ص٢٩، ع٤٤، ٢٠٠١، ص٦٧.

أَمَلِيكَ أُم بَدْرُ الدَّجَا الوَضَّاحُ وحسامه أم يبارق لمَّاحُ
أَعْلَى المسالكِ مابنته يَدُ التَّقَى وعمادها الاعلامُ والارماحُ
واحقُّ من يدعى خليفَةَ رَبِّه مَلِكٌ خَلَفْتَهُ هُدَىً وَنَجَّاحُ
كأَمِيرِ أُنْدَلُسٍ وَنَاصِرِهَا الَّذِي افنَى العداةَ حَسَامَهُ السَّافِحُ

ونلاحظ ان المعاني الاسلامية في النص واضحة المعالم ، بينه المقاصد : (يد التقى ، الخلافة الاسلامية) .ولذا لاينسى التذكير بمكر العدو ، وتحريض رجال الدين المسيحي لغزو الاراضي الاسلامية فيقول معرضا بهذا النوع من الاقوال والافعال :

أَلْقَسْ غَرَكُم لِيَهْلِكَ نَسْلُكُمْ بِسِيوفِنَا إِنْ أَفَكَّهُ لَصَرَاحُ
كَمْ ذَا يَسْخَرُكُمْ وَيَسْخَرُ مِنْكُمْ غَدْرًا وَمَكْرًا إِنْ تَبَّه لَوْقَاحُ

وهذا التحريض اللبباني الشعر الذي من شأنه رفع معنويات القائد وجنده كان من الهمية العظمى بحيث جاء بعد ان طمع النصارى في ارض المسلمين ، ووصلت اطماعهم لغرناطة عاصمة الدولة الاسلامية ولكن هيهات هيهات ان تحقق اطماع الاعداء او ان ترفع راية الشر:

طَمَعُ الشَّقِيّ أَضْلَهُ وَأَذَلَّهُ كَلَّ المَطَامِعُ لِلْقِيَّيْ فَصِاحُ
فَابَادَهُمْ وَمَلُوكَهُمْ فَتَحَّ بِسَدَا وَيَسْعِدُ جَسَدَكَ رَبِّنَا فَتَّاحُ
يَا مِمَّةَ الكُفْرَانِ تَقْنِي سَدَاً وَهَلْ لَجْفُونِ أَعْمَى يَنْجَلِي مِصْبَاحُ؟^(١)

وتردد صدى هذه المعركة عند شعراء آخرين لم يخرجوا عن الاطار المدحي، والتذكير بانتصارات المسلمين في المعارك التي قادوها في الاندلس^(٢) ووصل صدى المعركة الى ابن الخطيب الذي لم يكن مجرد موثق تاريخي لدول الاندلس هذه المرة بل، كان محرضاً ممدوحه ابا الحجاج يوسف الاول على الاقتداء بابي سعيد في شن الحرب على اعدائه وضربهم في عقر دارهم يقول:

(١) الاحاطة: ٤٣٩ / ٢.

(٢) ينظر: الكتبية الكامنة: ص ١٧٦، درة الحجال: ٧٠/٢-٧١.

لله يومُ المرج لابعُدت بهِ
صدمتهُ أحزاب الضلالِ كأنما
هابوا الشرى فتخالفت عزماهم
فكانهم والمشرافية فوقهم
أيدي الزمان وشفتهُ بثانٍ
هولُ الجبالِ تحبُ في ارسانٍ
جهلُ الرعاةِ قضى بهلك الضانِ
نارُ القبولِ أتت على قربانٍ^(١)

اما ترى كيف وقف الشعر -محرضاً ومشجعاً- على انتهاك محارم الاعداء، ودك حصونهم؟ اما ترى كيف يستذكر الشاعر انتصارات امته في زمن قد تغيب فيه مثل هذه الانتصارات وتتوالى النكسات فالكسات؟ الم يكن المكان يوماً ما شاهد عيان، وواعضاً ناطقاً على هزائم الاعداء، وظفر المسلمين بهم في يوم ما؟؟

ومن المعارك والفوحات التي تركت صدى طيباً في شعر هذا العصر فتح ابي الوليد السلطان اسماعيل بن فرج لحصن اشكر في سنة (٧٢٤هـ)^(٢) ومن الشعراء الذين ادلوا بدلوهم في هذه المناسبة البهيجة، ابن الجياب قال: مهناً ومادحاً، ذاكراً لك المكان الذي اصبح مأوى الكفر والشرك:

جاهدتُ بالنفسِ النفيسةِ سابقاً
وقصدتُ أرضَ الشركِ منه بعزيمة
وقصدتُ أشكرَ مريضِ الكفرِ الذي
اترمَ بها من غزوةٍ منصوره
مأوى المعالي في الرعيلِ الأسبقِ
صبّتُ عليهم كُلاً بأسٍ مطبقِ
قد ضاقَ صدرُ الدينِ منه بما نقي
طلعتُ على الدنيا بوجهٍ مشرقِ^(٣)

واستخدم ابن الاحمر ميكانيكية سلاح جديدة في هذه المعركة ، لمنع حصن اشكر الذي حاصره هو وجيشه وهذه الميكانيكية بدت حين (رمى بالالة العظمة المتخذة بالنفط كرة

(١) ديوانه: ص ٥٩١.

(٢) اشكر: حصن تابع لسطوة. بنظر اللمحة البدرية: ص ٨٥، مشاهدات لسان الدين الخطيب: تحقيق: د. احمد مختار العبادي. مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية، ١٩٧٢، ص ٨٧، وعن المعركة راجع نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين: ص ١٠٨، تاريخ الاندلس السياسي: ص ١٣٠.

(٣) استشيد ابن الخطيب ببعض الابيات . بنظر : اللمحة البدرية: ص ٨٦. ونقلنا الابيات التي استشيدنا بها هنا من الفتن والحروب واثرا في الشعر الاندلسي: ٢/٢٩٥. ونقلها د. جمعة شيخة من الاكليل للنمامي.

محماة طاقة البرج المنيع من معقله فعانت عياث الصواعق السماوية فنزل اهلهما يسرا
على حكمه^(١) يقول ابن هذيل^(٢) في هذا كله:

وظنوا بأن الرعد والصعق في السما فحاق بهم من دونها الصعق والرعد
غرائب أشكال سماهرمس بها مهندسة تأتي الجبال فتنهده
آآنها الدنيا تريك عجائباً وما في القوى منها فلا بد أن يبدو^(٣)

ولا يمكن ان تمضي هذه الاحداث دون استلهاام التاريخ الاسلامي ، والتذكير باصحاب
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجهادهم، فيقول ابن الجياب مازجا بين هذه الواقعة
ووقعة الخندق التي حدثت سنة (٥هـ)^(٤):

لله منك مشاهد مشكورة عند الله بمثلها لم تسبق
مثل الحفير بها الذي ياشترته فعل الرسول وصحبه في الخندق^(٥)

(١) اللحة البدرية: ص ٨٥، الفن والحروب واثرا في الشعر الاندلسي: ١٨٨/٣-١٩٢.

(٢) تتردد هذه القصيدة بين ابن هذيل، وابن سقر اللخمي (ت. ٧٢٠هـ) في اللحة البدرية: ص ٨٥، الكتيبة
الكامنة: ص ٧٣، الفن والحروب: ٢/٢٩٦، وتجدر الاشارة الى د. شيخة قد نسب القصيدة لابن هذيل ايضاً
ينظر الفن والحروب واثرا في الشعر الاندلسي: ٣/١٩١، فناقض نفسه بنفسه. وارى اننا لابن هذيل
واسوق الادلة الاثية على هذا الرأي:

١- ابن هذيل اشتهر بقول الشعر والنظم فيه اكثر من اللخمي الذي عرف عنه انه نحوي عالم بتقراءات
واللغة (انظر الكتيبة الكامنة: ص ٧٣).

٢- كان ابن هذيل معاصراً لاحداث هذه للواقعة، كما رافق بقية الوقائع. في حين ان اللخمي كان معتدلاً فسى
افريقية اغلب هذه الاحداث وانه مات في الطريق ببونة، ولم يعرف شيئاً عن اشكر او معركة.

٣- ان المصادر الادبية قد ذكرت القصائد التي استشهد بها ابن الخطيب للخمى لابن هذيل ومن تلك القصائد
قصيدته التي مطلعها:

نامَ الظلُّ النبتُ في حجرِ النعامِ لاهتزازِ الظلِّ في مهدهِ الخزامى

لذ وردت لابن هذيل -من ديوانه- "السليمانيات والعزفيات" في تثير فراند الجمال، ص ٣٢٢، ونفع الطيب:
٥/٤٩٠، فليس من المعقول ان تنسب هذه المصادر - ولا سيما ابن الاحمر الذي قال انه ادرك ابن هذيل
وعاصره - قصيدته الى غيره (وفوق كل ذي علم عليم).

(٣) اللحة البدرية: ص ٨٥.

(٤) تاريخ الرسل والملوك: محمد بن جرير الطبري (ت. ٣١٠هـ): تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار

المعارف، ط ٥، (د. ت): ٥٦٤/٢.

(٥) اللحة البدرية: ص ٨٦.

بعد هذه الواقعة حدثت معارك عدة لم تحل من تحرير لحصون ومدن أخرى أسهمت في تشجيع المسلمين في زحفهم نحو العدو، أو الاحتفاظ بمدنهم التي احتلوها نتيجة هذا الزحف^(١).

ومن الحملات الحربية التي وجد صداها في الشعر الأندلسي على هذا العصور، فشل الحملة المرينية بقيادة السلطان أبي الحسن (ت ٧٥٩هـ)^(٢) عندما حاول استرجاع طريف من بين يدي النصارى فالتحق معه جيش غرناطة ولكن، الأمر الالسي ما لاتستهي الأنفس عندما هزم هذا الجيش، والحقت الهزيمة الشنيعة بالمسلمين، ووقع منهم شهداء كثير كان من بينهم والد لسان الدين الخطيب، واخوه الأكبر، وحدثت تلك الحملة في ٧/جمادى الأولى/٧٤١هـ^(٣)

ومن الشعراء الذين كتبوا لابن الخطيب معزياً، متأسفاً على فقدته في المعركة أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي (ت ٧٥٠هـ)^(٤) الشاعر الغرناطي، فقال في التعزية: **خَطَبُ الْمَمِّ فَاذْهَبِ الْأَخَ وَالْأَبَا رَغْمًا لِأُفِّ شَاءَ ذَلِكَ أَوْ أَبْسَى** ثم قال يصف هذه الحملة الفاشلة، ويومها الكئيب الذي خلف هذا الجرح على ابن الخطيب وغيره:

(١) ينظر: ديوان ابن الخطيب: ص ٢٤٤-٢٤٥، ص ٥٨٥-٥٨٧، الكتيبة الكاملة: ص ١٩٨-١٩٩، الملحمة البدرية: ص ١٠٨-١٠٩، الإحاطة: ٤٤٣/٣-٤٤٧.

ديوان ابن زمرك: ص ١٥٢، اعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن الهجري. وهو (كتاب شير الحصان في من نظمى واياه الزمان): أبو الوليد اسماعيل بن يوسف بن الأحمر الغرناطي (ت ٨٠٧هـ) حققه وندم له: د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٩٧٦، ص ١٦٥-١٦٨.

(٢) اخباره ومعاركه في: الملحمة البدرية: ص ١٠٥-١٠٦، اعمال الاعلام: ص ٣٠٤-٣٠٥، ر. صة النسرين: ص ٢٣، محصر غرناطة: ص ١٧-٢٠.

(٣) طريف: من المواقع الاستراتيجية في اول بحر المحاز المسمى بالزقاق، وهي تحتل موقفاً عسكرياً واقتصادياً مهماً. ينظر: الروض المعطار: ص ٣٩٢.

(٤) ينظر: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين: ص ١١٧، مصرع غرناطة: ص ٦٠ قال عنها: (تسيا كررت مأساة العقاب)، تاريخ الأندلس السياسي: ص ١٣١، يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة: د. محمد كمال شبانة، لجنة البيان العربي- القاهرة، ١٩٦٩، ص ١٣٠، الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر - صور جهاديه بطولية: ص ٢٥-٢٦.

(٥) أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي الغرناطي المعروف بابن المربع من بطن مالقة، تلمس بالطاعون الحارث أو آخر سنة (٧٥٠هـ). ينظر: درة الحجال: ١١٩/٢، فتح الطيب: ١٢/٥.

لا كان يومها الكريمة فكم وكم
يوم لوى لياتك لم يبق للـ
وتجمعت فيه الضلال فقايلت
أهأ لعز المحتدين صرامة لأدل
دهم المصاب فعم إلا أنه فيما
فيه المجلي والمصلي قد كبا
اسلام حذ مهند إلا ثبا
فيه الهدى فتفرقت أيدي سبا
عز المهددين وأذهببا
يخصك ما أمر وأصعببا^(١)

اما ابن الخطيب فقد شارك الازدي في نفث سمومه، وتشاومه ودعاه على يوم طريف لما وقع فيه من خطب عظيم تركه في حسرة والم بعد ان فقد اسرته في هذا اليوم، فيقول فيه.

لا كان يومك يا طريف فظالمما
ورميت دين الله منك بفادح
وخصصتني بالرزء والتكل الذي
لولا التعلل بالرحيل وأننا
لجريت طوع الحزن دون نهاية
أطلعت للآمال برقباً خلبا
عم البسيطة مشرقاً أو مغربا
أوهى القوي مني وهذ المنكبا
ننضي من الاعمار فيها مركبا
وذهبت من خلع التصبر مذهببا^(٢)

ونرى ابن هذيل فقد تقبل هذه الفاجعة بروح ايمانية، وتسلح بالصبر على فقد الاهل والاحبة ماداموا هناك في جنة الخلد كما صورها قوله:

تجلت عروساً جنة الخلد لي الوغى تقول لأهل الفوز: لا يغلكم مهري
فكان من القوم الذين تبادروا الى العالم الأعلى مع الرفقة الغر^(٣)

وعلى الرغم من ان ابن الخطيب خاطب ابن الاحمر بعين الرضا، ومدحه وانتى على موقعه^(٤) في هذا اليوم المبكي الوجع، وانه -ابن خطيب- قد نعم بقرب ووصل بعد جفوة^(٥)، الا انه ما فتأ يدون هذه المعركة بجزع وبكاء، واسما ذلك المكان بانه سر

(١) نفح الطيب: ١٣/٥.

(٢) ديوانه: ص ٢٥١.

(٣) نفح الطيب: ١٨/٥.

(٤) ينظر، ديوانه: ص ٤١٠.

(٥) ينظر: م. ن: ص ٥٧٠.

بقعة واسم موقع لما حدث فيه ، وهو امر طبيعي لان (المكان معرض لشتى المؤثرات المميتة التي تفرض هيمنتها على الشخصية)^(١) يقول ابن الخطيب في ارجوزته:
ونزل المولى على طريف في خبر يغني عن التعريف
وقضيت عليه فيها الوقعة ياشتر ما جنته تلك البقعة^(٢)

وإذا ما انتقلنا الى القرن التاسع الهجري لاستكناه انماط المكان الحربي ودلالاته الموضوعية والفكرية فسنلتقنا ثلاثة دواوين شعرية، ظهرت في هذا العصر، وهذه الدواوين تعود الى:

١- ديوان يوسف الثالث (ت ٨١٩هـ): وهو شاعر ملك، حكى لنا اوصاف معاركه واحداث غزواته.

٢- ديوان ابن فركون (ولد حوالي ٧٨١هـ): واغلب اماديه في السلطان يوسف الثالث^(٣)، وكمية الشعر الحربي وفيرة في شعره.

٣- ديوان عبد الكريم القيسي الاندلسي (ق ٩هـ): وهو الوثيقة التاريخية العظمى في سقوط المدن والحصون والقلاع في اخر قرن عاشت فيه الاندلس عربية مسلمة.

ديوان يوسف الثالث لا يخلو من وقائع ملموسة قادها الامير الشاعر بنفسه ابار جبل الفتح الذي قيلت فيه معظم القصائد التي ستكون محور حديثنا عن شعر يوسف الثالث، ومادحه ابن فركون. اما شعر الاول منهما فغالبا يأتي ممتزجا مع الفخر، فلننظر قصيدته التي قال عنها: (من منظومنا على اثر استفتاحنا جبل الفتح في اول شهر جمادى الثانية عام سبعة عشر وثمانمائة):

(١) بناء المكان ودلالاته في رواية الحرب: ص ٥٣.

(٢) رقم الحل في نظم الدول: ص ٣٠٩.

(٣) ينظر: المقدمة الضافية التي وضعها د. محمد بن شريفة لديوان ابن فركون: ص ١٢-٩٢.

ففي الملحين عداتنا لنجاز
عنا الكتاب دائمًا تجادها
ولنا المنابر أصدرت دعواتها
خطباؤها اهلاً بهم قد أعلنوا
وطريقنا إلا هدى لحلة طارقي
حيث الحقيقة لم تدن بمجاز
متظافر الا غراء بالايجاز
بعوارف الاعلاء والاعزاز
ببلاغة الاطناب والايجاز
لم يدر إلا عزمة الاجهاز^(١)

وفي قصائده التي اتربت حروفها بمعاركه التي خاضها لم تخل من فخر وهمة عالية في سبيل ارتقاء المجد وطلب العلا ونيل الامال التي هو جدير بنيلها، وقادر على بلوغها كقوله

على حين لم تغن الرياض بزخرف
الفنا بها الرمضاء والشمس جهرة
كبار نفوس همها الهمة التي
أيا راكب الوجناء في طلب العلى
ولا الدوح قد للغصون انيق
لتدرك آمالنا لنا وحقوق
تحملها مالا تكاد تطيق
سيكفيك عزم في العلاء عريق^(٢)

ونجد مثل هذه الروح الكبيرة، والنفس البطلة حتى في قصائده التي قيلت في رثائه للمدن وللحصون التي سقطت على عهده بالملك، فعندما سقطت (تعتبر سنة ٨١٣هـ)^(٣). لم تنه عزيمته، عن التقديم لمخيمته التي قيلت في هذه المدينة بقوله: (فسار يشرح هذه الحال مسوغا ضعف سلطته في اغلب الاحيان)^(٤)، وفيها يعترف اعتراف البطل الجري بالهزيمة. وهذا الاعتراف ليس من باب الترفع. وانما هو من باب التأسى، وفيه اقرار بان الحرب سجال: يوم لك ويوم عليك، وفيه ايمان ايجابي بمفهوم القضاء والقدر...)^(٥) (النسمعه ينشد في ذلك:

(١) ديوانه: ص ١٠٩.

(٢) م. ن: ص ١٨٤، وانظر: ص ١٢١-١٢٢، ص ١٣٢-١٣٣، ص ١٣٤-١٣٦، ص ١٥٦-١٥٧.

(٣) (تعتبر: إحدى مدن الاندلس القديمة تبعد عن مالقة حوالي ٦٠ كلم (هامش ٢٢٣) ينظر: معيار الاختصار: ص ١٢٧. راجع عن اخبار هذا: تاريخ الاندلس السياسي: ص ١٣٢-١٣٣. وخلا ديوان ابن فركون من ذكر لهذه المعركة.

(٤) ديوانه: ص ١٨٩.

(٥) الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٣٢/٢.

خليلي مهلاً فالزمان كما تدري ولا بُدَّ من يسرٍ على أثر العسرِ
فمهما دهي صحواً فلا بُدَّ من قطرٍ ومهما دجا خطباً فلا بُدَّ من فجرٍ

والطافُ صنعَ الله رانعةً البشرِ

هو الدهرُ ذو الوجهين فعلٌ منافقٍ واحكامه تجري بكسر الخلاقِ
فصبراً وتسليماً لما شاء خالقي فلا بُدَّ من ظفرٍ ونصرٍ موافقِ

على رغمٍ من يابئ الظهور على الكفرِ

على العدلِ يجري حكمه وقصاهُ ومنا له التسليمُ في ما يشاؤهُ
ومن كان بالحقِّ اليقين اهتداؤهُ رأى النصرَ خفاقاً عليه لساؤهُ

وسحقاً لباغٍ حادٍ عن علمِ النصرِ^(١)

لقد خلق الشاعر من نفسه ذاتاً أخرى، واخذ يبادلها الحديث عما جرى، بانه قضاء الله سبحانه- فوق كل قضاء ، وقدره اجدر ان يحل في نفس راضية مطمئنة بانه ما حدث لها هو الخير مهما كلف الامر، ولا بد ان يجعل الله بعد عمر ميسرة، فهذا هو حال الدهر، يوم يسؤونا ويوم يسرنا.

اما ابن فركون فقد خصص جل شعره الحربي في اماديج هذا الامير-يوسف الثالث- وغالبية المكان الذي تحدث عنه في شعره هو جبل الفتح -جبل طارق- الذي رابط امامه الممدوح ردحا من الزمن، وعلل المسرد التالي يبين لنا كمية الشعر الحربي ونسبته الى بقية اشعاره:

عدد ابیات الديوان	الشعر الحربي	النسبة المئوية
٤٥٢٣	١٦٥٠	%٣٦,٤٨

يتمتع شعر ابن فركون بلغة جزلة ، والفاظ منتقاة لتدل على المعاني بصورة بليغة. وخيال جذاب مبتكر وعناية موسيقية صوتية بالايقاعين الثابت والمتحرك فهو شعر يدل

(١) ديوانه :ص:٧٣.

على ثقافة صاحبة اللغوية، وسعة صورته، وحسن اهتمامه بالتشكيل الإيقاعي لنصوصه الشعرية، وعل اطلالتنا هنا على شعره الحربي وهو كثير كافية لنبين على صحة قولنا.

قال ابن فركون في تقديم احدي قصائده المدحية (ولما دخل المسلمون من اهل رندة صخرة عناد اعادها الله واستأصلوا من وجدوا بها قتلا واسارا الا قليلا منهم، اعتصموا بقصبتها وورد البشير بذلك قلت اهني مقامه الكريم للعين وهي من المرتجلات في يوم الاربعاء الرابع من لذي الحجة عام اثنتي عشر وثمان مائة^(١)):

هو الفتحُ قد أُجْرئُ لِدَيْكَ جِيادُهُ هو الفتحُ قد القى اليك قيادُهُ
أما هذه يكرُ الفتوح التي بها اتى الدهرُ يدني العزّ منك بعدادُ
أما هذه في الخلق ديمة رحمة بها الله قد حبا الوجود وجادُهُ
هي الصخرةُ السماءُ قد حلَّها الهدى فعمّ زين معورها ووهادُهُ
وطهر مغناها من الشرك وانتئى يكيدُ بها التوحيدُ من كان كادُهُ
وسيفك سيفُ الله اذ حل ريعها اباح به جمع العدي وابادُهُ
وجندك جنْدُ الله قد جال جولةً يسلُّ ظبأه أو يهزُّ صعاده^(٢)

هل ترى كيف ان الابيات تسير بتقل مجلجل، ونفس حماسية الى القافية التي اختار لها حرفا شديدا مجهورا هو الدال ثم وصله بالماء المصومة لتزيد الضمة من قوة الحرف الماضي وتعلي فخامته الموسيقية داخل النص عموما. علما ان القصيدة مرتجلة، وفيها لا يتوقف الشاعر عن القول، بل ينهمر شعره انهمارا على الممدوح وتتدفق كلماته تدفقا مانوسا^(٣) وهذا ما اراده ابن فركون حين اتى على خاتمة النص بتقديم العذر ليوسف الثالث اذ قصر عند الشعر، لاسيما وانها قصيدة ارتجلت في ظرف، مفرح، كما ان

(١) ديوانه: ص ١٥٦. وصخرة عناد: وقيل صخرة عباد من احواز رندة(هامش المحقق). حصن الصخرة يقع قرب رندة على الحدود الغربية لمملكة غرناطة. ينظر: نهاية الاندلس: ص ١٣٨. ولعله هو الحصن الذي يسميه ابن خلدون بصخرة عباد او عباد. ينظر: العبر وديوان المبتدا والخير: عبدالرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، دار الكتاب اللبناني بيروت، ١٩٦٨، ٤٢٤/٧. وفيه التقى ابو يوسف المريني بالفونسو العاشر ملك قشتالة وقد جاء يستصرخه لخروج ابنه (شأنجة) عليه. الاستقصا لخبار المغرب الاقصى: ٥٥/٣.

(٢) ديوانه: ص ١٥٦-١٥٧.

(٣) ينظر: العمدة: ١٨٧/١.

اوصاف الممدوح مما اعيت ابن فركون وغيره، لعظيم شمائله وجميل اخلاقه ، وكبير افعاله ، فيقول:

وخذها على أن البديهة لم تزل
 واوصاف مولانا الخليفة يوسف
 فلا زال يامولاي عهدك سافراً
 تبرد البليغ اللفظ عما اراد
 تبكت قساً حيث لا قس ايادة
 وجود فتستجدي العفاة عهادة^(١)

ان قراءتنا لنصوص ابن فركون الحربية واماديه لتخيرنا بالمزيد من هذا الاحكام اللغوي والصوتي ، وشدة الاعتناء بمفاصل القصيدة، فغالبا ما تكون قصائده لوحة واحدة فهي بدون مقدمات، كما انها تركز على الحدث وتبنى عليه، فمطالعها-مثلا- جميعها مصرعة، وفيها ما يهتم الشاعر به من تقديم المسرة والفرحة الى صاحب النصر الذي من اجله انشأ وفي مدحه انشد والمطلع كما نعلم هو (اول ما يقرع اذن السامع عيشرح له صدره، وتهنر نفسه، ويشعر بارحية وبهجة فيتشوق لما ياتي بعده)^(٢) وكذلك كانت سطلع ابن فركون، في مثل قوله:

هنت يامولى السورى مقدما
 اطلعت للسعد به اجما^(٣)

وقوله:

اناصر دين الله هنته صنعا
 بشانره تهديك مايملا السمع^(٤)

ومثلما استخدم القافية المطلقة ، استخدام القافية المفيدة وزاد الجناس في بعض منيا التصريح قوة كقوله مادحا:

سل ركاب الحمى غداة استقلت
 من حوت فى رحالها واقلت^(٥)

(١) ديوانه: ص ١٥٨.

(٢) العمدة: ٢١٨/١.

(٣) ديوانه: ص ١٦٥.

(٤) م.ن.: ص ١٦٣.

(٥) م.ن.: ص ١٦٤.

ومثلهما استخدم القافية الموصولة بالهاء في مطالع قصائده الحربية كقوله مسهنا
بالفتح ومادحا:

ناصر الدين خذ اليك بشاره^(١) قد كستها الفتوح أبدع شاره^(٢)

وإذا تركنا المطالع لندخل جسد القصيدة، فنراودها عن نفسها بغية الكشف عن
المزيد من الصفات الاسلوبية المتقنة في شعر ابن فركون وجدناها لا تقل اهمية عن
العناية الموسيقية، او العناية بمطلع القصيدة، فهو - بالنفي والاستثناء - يقرر لنا طائفة
من خصائص ممدوحه، ووصافه:

وما راقى نظم الشعر إلا لأن غدت^١ لناصر دين الله فيه المدائح^٢
وما اشرق الا صباح إلا لأن بدت^٣ على الشمس من وجه ابن نصر ملامح^٤
وما راع نسر الشهب الا جماله^٥ فحث جناح منه للغرب جناح^٦
وما ارتاعت الشهبان إلا لانه^٧ تعالى له قدر على الشهب طامح^٨
وما رعشت إلا لتأخذ حذرهما^٩ وقد راق صبح من محياه لائح^{١٠}
وما اعتز دين الله إلا لانه^{١١} يدافع احزاب العدى ويكافح^{١٢}
وما سيفه إلا دم الكفر سافح^{١٣} وما حمله إلا عن الذنب صافح^{١٤}

والذي يبدو ان النفي والاستثناء لم يؤديا حقا من حقوق الممدوح، فاتبع ابن فركون
جملة اخرى من المدائح والشمائل التي تخص افعاله الحربية عن طريق المناحي
الاسلوبية، والوسائل اللغوية في نصه الشعري، فحرف الواو العاطفة التي هي ام باب
العطف، واولاها اهمية في الاستخدام^(٣) يودعها ابن فركون ابياتا تعقب المطالع لتمييز
طائفة من سمات ممدوحه من عزم، وجود،... هالك قوله:

(١) ديوانه: ص ١٦٦.

(٢) م.ن: ص ١١٠-١١١.

(٣) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: حسن ابن ام القاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق: طه محسن ،
الموصل - ١٩٧٦، ص ١٨٨.

هُدًى تَجَلَّى مِنْ سَنَاةِ الْمُشَارِقِ
 وَعِزْمٌ كَانَ السُّرُوعَ سُلَّتْ سَيُوفُهُ
 وَجُودٌ كَانَ الْبَحْرَ لَذَّ مَذَاقِهِ
 وَذَكَرٌ كَانَ السُّرُوضَ هَبَّ بِعَرَفِهِ
 وَعُرٌّ جِيَادٍ فِي مَدَى النَّصْرِ تَرْتَمِي
 وَبِيضٌ ظَبْيٍ مَهْمَا اِثَارَ جِلَادَهَا
 وَسُمْرٌ قَنًا لَوْلَا الْأَسْنَةُ لَاحْتَفَّتْ
 كَمَا لَاحَ صُبْحٌ أَوْ تَطَلَّعَ شَارِقُ
 وَنَابَتْ عَنِ الْأَعْمَادِ فِيهِ الْمَفَارِقُ
 أَوْ السَّحْبُ يَهْمِي جُودَهَا الْمَتَدَافِقُ
 نَسِيمُ الصَّبَا فَارْتَاخَ لِلطَّيْبِ نَاشِقُ
 إِلَيْهَا مِثْلَهَا يَعْزِي الْوَجِيهَ وَلَا حَقُّ
 سَحَابٌ قَتَامٌ فِيهِ فِيهِ بِوَارِقُ
 بَلِيلٌ عَجَاجٌ هُنَّ فِيهِ شُورِقُ^(١)

ومثل هذا الربط بين المطع وباقي الابيات يتجلى بشكل اكبر وانسج عند استخدامه الجملة الاسمية، في قصيدة: قالها فيه- الممدوح- وهو قريب عهد بالاياب من فتح جبل الفتح، فيقول:

هذي الخلافة قد ملكت قيادها
 هذي ملائكة السماء تنزلت
 هذي البشائر قد رفعت لواءها
 هذي الغزائم كلما اعلمتها
 هذي الكواكب تستقل سعوذها
 هذي الكتائب كلما احتدم الوغى
 هذي الجنود اطلت في سحب الندى
 هذي العرى ائت نواك على النسوى
 هذي الخلائف منك تبغى نصرها
 واجلت في طلق السعود جياذها
 بالنصر تجد في الوغى اجنادها
 واقمت بالصنع الجميل عمادها
 ابعدت في شأور العنى امادها
 لك حيث تطلع للعدي اضدادها
 ارسلت من غاب القنا اسادها
 انتهاكها والى العدى اتهادها
 لمنا نويت جلاءها وجلاذها
 في المعضلات وترتجى انجادها^(٢)

وإذا ما اردنا ان نجمل القول في هذه البنى التركيبية للنص، وجدنا ان بعضها يقوم على اسس من التلاعب اللفظي، والتزييق في الجمع بين الافعال لاسيما وقد انتهت القافية بمثل هذه الافعال^(٣)، وبعضها قام على استيعاب حروف المعجم في النظم^(٤)،

(١) ديوانه: ص ٣٠٧.

(٢) م:ن: ص ٣٠٧.

(٣) ينظر: م:ن: ص ٣٢٩.

(٤) ينظر: م:ن: ص ٢٢٣-٢٣٥.

وجاءت في هذه الاماديج الحربية المقطعات^(١)، كما جاءت المخمسات^(٢)، كل ذلك يدل دلالة قاطعة، على ما قدمناه من قول من ان ابن فركون يحسن نظم الشعر ويبرع بيه القول لاسيما في اماديجه التي تدخل في الشعر الحربي الذي صرف لاجله غالب شعره، وصفوة قوله . اما عن الصورة الفنية فهي لاتبعد عما اظننا فيه القول، فهو اذا ما وصف ملتقى الحرب، ومكان الوعى احاط بالصورة من كل جانب، عن طريق تكرار الاداء، وما يفتحه هذا التكرار من الاتيان بمشبهات جديدة ومبتكرة في سبيل خدمة المشبه به الاول. يقول مصورا عظمة هذه الحرب، وعظمة فارسها- الممدوح- فنيا :

فترتاحُ خيلُ الله للملتقى الذي يجيبُ به داعي الهدى ويجلبُها
 كأن بالجيادِ الغرِّ ما اصممتُ العدى ولا جوابَ التكبيرِ إلا صهيلُها
 كأن بالظبا ما انطقُ الهامُ في الوغى ولاأخرسَ الناقوسَ إلا صليلُها
 كأن بالقنا الخطي ما قصرَ العدى ولاقصرَ الأعمارَ الا طويلُها
 كأن بالبنودِ الحمرِ تقترعُ الربى كما قد جلا حمر السحابِ اصيلُها
 كأن ببلادِ الشركِ يحتلُّ أرضها فيعتزُّ بالفتحِ المبينِ ذلولُها
 بكلِّ كمسي العجاجة سيفه يجلي دياجي أفاقه ويحليها
 خفيفٍ على متنِ الجوادِ وعزمه له وطأة يكفى العدو نقيلُها^(٣)

اما عن جبل الفتح^(٤) فقد تناثر وروده بشكل ملفت للنظر حتى في القصائد التي لم تبرز الجانب الحربي، ولعل الناظر في ديوانه ليرى كيف تشكل المكان في النصوص من الشعرية الكثر، وكيف احسن ابن فركون استخدامه كما احسن في الامور الفنية الاخرى التي ذكرناها. والابيات التي سنذكرها الان وهي خاتمة نص نظمه بطلب من الامير يوسف الثالث عند نزوله بحصن المثلين^(٥) فيها من الاحاطة بسمات هذا الحصن

(٢) ينظر: ديوانه: ص ٢٣٩.

(٣) ينظر: م.ن.. ص ٢٥٠.

(٤) م.ن: ص ٢٢٢.

(٥) انظر: م.ن: ص ١٦١، ص ١٦٥، ص ١٦٩، ص ١٨٠، ص ١٨٤-١٨٥، ص ٢٠٩، ص ٢٢٧، ص ٢٥٩.

(٥) اشار د. ابن شريفة انه حصن المكين وان ما ورد في الديوان، ص ١٣٩، وفي فتح الطيب ٥٠/٥١٨.

تصحيح واضح.

المنيع الذي وسمه بانه جبل، وشمول للمكان بتلك الصيغ الابدائية، وهاتيك الوسائل الفنية، لنسمع الابيات، اخذين بالحسبان الجبل الحصين وكيف اراد له ان يكون:

لَدَى جَبَلٍ بِالشَّهْبِ نِيَطَتْ هِضَابُهُ
فَصَافِحَتِ الكِفِّ الخَضِيبَ نَجْوُدُهُ
أَشْمَ بَعِيدَ الصَّيْتِ بادٍ وَقَارُهُ
ومرْتاحَةً اَعْلَامُهُ وبنسْوُدُهُ
تَمَرُّ بِهِ هَوَجُ الرِّيحِ فَتَنْتَنِي
وقد سَدَّ مسرَاهَا الرِّفِيعَ صَعْوُدُهُ
تَرُومُ سَمَوًا فَوْقَهُ وَهِيَ دُونَهُ
فتَقْصِرُ عَمَّا تَشْتَهِي وَتُرِيدُهُ
دَعَوْتَ لَهُ أَهْلَ الجِهَادِ فاعْطَعُوا
كما زارتِ البَيْتَ العَمِيقَ وَفَسْوُدُهُ
وَدَارَتْ حَوَالِيهِ الجُنُودُ كَأَنَّهَا
وشاحٌ عَلَى خَصْرِ يَرُوقُ فَرِيدُهُ
تَحَلُّ كَأَسْرَابِ القَطَا مِنْهُ مَورِدًا
يَطِيبُ بِجَدْوَى راحَتِيكَ وَرُودُهُ
بمِشْرَعِهِ أَرْتاحَتْ عَوايِكَ شُرْعًا
ولكنَّهُ غَيْلٌ حَمْتُهُ أُسْوُدُهُ^(١)

ان الایحاء الذي جلبه حسن التعليل بقوله: (ولكنه غيل حمته اسوده)، كتف الصور السابقة، وادارها في مصب واحد هو حصانة هذا المكان، وانه ليس من السهولة ولوجه، والتمركز فيه الا عن طريق شجعان، ما فتأوا يعرفون ويكلات الحروب، وفتائجها، واساليبها وهم لا يخرجون عن اوصاف الجنود والذين ذكرهم، وعرف بهم قبل هذا التحويل في خاتمة النص.

ولم تكن سمات الامكنة الحربية، كالمنعة، واقتحام الجيش، وسوح الوعى وديارات الهيجاء، هي التي وردت في نصوص ابن فركون الشعرية بل ذهب ليجلب التناول، وليعمم ظاهرة نزول الغيث والامطار على المكان الذي زاره الممدوح او حل فيه فهذه مالقة (حرسها الله وقد تدارك الله الوجود برحمته واسترسلت الامطار بعد حلول ركابه العلي بها اثر قحط اصابها وجهد عظيم ترايبها)^(٢)، يقول:

(١) ديوانه: ص ١٤٢.

(٢) م. ن: ص ٢١٠.

من رحمة عنهم ماضاق واسعها
لا يهتدي لسبيل الأمن جازعها
جهاده في سبيل الله شافعها
فضلاً بها قد حباه الله صانعها
من الغمام قد انسهلت مدامعها
والآن لا يالف الإغناء حاجعها
تنبّهت بعدما أغفت هواجعها
هذي منازلها رقت منازلها
عن الروابي التي رقت روائعها^(١)

وحلّ مألقة والناس قد ينسوا
اضحت لديها نفوس الخلق خائفة
قد أو بقتهم خطاياهم وليس سوى
صناع الله لمّا حل ساحتها
فاشرقت أوجه البشرى بناشئة
حيّا الحيا وجفون الزهر نائمة
لله ناضرة منها ونظرة
هذي بواسمها رقت نواسمها
خيل النواسم لاتنسي اعتكها

وبعد؛ ففي الديوان وثائق تاريخية، واماديح كثيرة، وامكنة مرصده، واخرى مستوحاة من الفاظ البيت الشعري او من صورته، او من موسيقاه. انها ثقافة عميقة لشاعر شهد مرحلة تاريخية حاسمة في الاندلس، ومن ثم فهو -الشاعر- جدير بان يوضع تحت عدسة النقد الادبي الحديث، تركيا وصورة وصوتا.

وإذا ما انتقلنا اخيرا الى ديوان القيسي اخر الشعراء اصحاب الدواوين الذين عاشوا عصر غرناطة، وشهدوا سقوطها سقوط الاندلس جميعا، وجدنا ان الامكنة الحربية توزعت في قصائده على جزمين اثنين:

الجزم الاول؛ يشمل المعارك التي شهدها، ودونها شعرا، مثل معركة حصن اللقون، ومعركة لورقة وهما مما سنحدث عنها الان.

الجزم الاخر؛ يمثل سقوط العديد من المدن الاندلسية، وهو مما سنترك الحديث عنه الى الفصل الثالث.

وقعت معركة حصن اللقون سنة (٨٣٦هـ)^(١) وفيها سقط هذا الحصن الذي يعد من اهم حصون مدينة وادي اش^(٢) على يد القائد القشتالي جو مث دي ريبيرا. وفي

(١) ديوانه: ص ٢١٢.

(٢) ينظر البسطي اخر شعراء الاندلس: ص ١٦٧، الشعر الاندلسي في القرن التاسع الهجري: ص ١٩٧. الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي، ٢/٣٢٢.

(٣) ينظر: الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٢/٣٢٢، الشعر الاندلسي في القرن التاسع الهجري: ص ١٩٧.

مقطوعة عبد الكريم القيسي التي قالها في سقوط هذا الحصن (يرى الحرصر على
المراكز الاسلامية في الاندلس من اوجب الواجبات، بل هو حق من حقوق الله يجب
صونه واندفاع عنه، ومن السفاهة ان تسقط هذه المراكز بيد النصارى)^(١) يقول القيسي
في سقوط هذا الحصن:

يَا أَهْلَ وادي الآشي لادرْ دُرْكُمْ ولايرحتُمْ لقسى للكرب والكمدر
ضيتُمْ سفهاً حصن اللقون ولم ترأقبوا فيه حق الواحد الصمدر
حتى حواه العدى غدرأ وصار لهم لغزوكم عمدة من أفضل العمدر
فاستشعروا إذ أضعتُمْ فيه حزمكم والجد قرب انقضاء الوقت والأمد^(٢)

فالقيسي هنا يحمل اهل وادي اش مسؤولية سقوط هذا الحصن ويرى ان استيلاء العدو
عليه ما كان ليكون الا نتيجة التهاون والاهمال من قبل اهل المدينة. وتفوح من ابيات
القيسي الماضية رائحة الشر التي تفيد القول بان الحدث المؤدي الى سقوط الاندلس بدأ
يسير بسرعة، وان النهاية قد قربت، فلم تكن غرناطة وبقية المدن التي بحوزة المسلمين
عن هذا التهاون والاهمال ببعيد.

اما موقعة لورقة فقد جرت أحداثها سنة (٨٥٦هـ)^(٣) وفيها كسر جيش المسلمين
واستشهد نخبة من قادتهم، وان سكنت المصادر التاريخية العربية عن تدوين هزيمة
المسلمين فلون المادة الشعرية التي رددت صدى هذه الوقعة ايدت الرواية النصرانية،
ووافقنا فيما تعرضت له البلاد العربية من قسوة وويل وثبور ومخمسة القيسي الآتية
لتكشف لنا عن عظيم هذه المآسي، وكبير وقعها في النفوس والبلاد. يقول:

لمصاب أندلس تصوب الأدمع ولما جرى فيها تذب الأضلع
فلها مع الإعداء حال تفزع تقضي بحسرة من يرى أو يسمع

وتكاد مهجته له تتصدع

(١) الشعر الاندلسي في القرن التاسع الهجري: ص ١٩٧.

(٢) ديوانه: ص ١١٣، البسطي اخر الشعراء الاندلس: ص ١٦٧-١٦٨.

(٣) ينظر: البسطي اخر شعراء الاندلس: ١٧١-١٧٢، الشعراء الاندلسي في التاسع الهجري: ص ١٩٦.

الفن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٣٢٣/١.

جارَ الزمانَ على جميعِ جهاتِها فابحَ حُرمةَ أهلِها لعدائِها
اترى الالهَ يُقبلُها عثراتِها ويزيلُ ما هيَ فيه من غمراتِها

بدنو نصر بالفتوح مُشفَعُ

فلقَد أحالَ عدوَّها احوالَها ومن الخطوبِ أذاهُها احوالَها
وافاضَ في إقطارِها إنزالَها لَمَّا ابادَ بلورقةَ ابطالِها

يومَ العروبةِ كانَ فيه المِصرعُ^(١)

ولا يحتملُ القيسي جيش المسلمين هذه الهزيمة، بل؛ بالعكس كان يرى من سقط منهم في ميدان المعركة او من اسر بيد العدو شهداء ابطالا جديرين بكل رثاء واطراء ماداموا قد اوجعوا العدو، واثخنوا فيه الجراح، يقول في هذا الجيش:

ذهبَ الجميعُ مجاهدين كما آبتغوا وحووا هناك من الشهادة ما حووا
ماذا نكوا اعداءهم ماذا نكوا ولربما منهم أسارى ما اقتدوا

كَم أمرضوا من خاطرِكم أوجعوا !!

ولا شك في ان هذا التخميس يذكرنا بتخميس يوسف الثالث الذي استشهدنا بأبياته سابقا، (وهو اطول من تخميس شاعرنا واجود نظما ولكنه دونه حماسته واقل منه اثرا، وتكمن قيمتهما معا في تسجيل حادثتين من حوادث تاريخ مملكة غرناطة الاخير الذي فقدت روايته العربية ولا يعرف منه اليوم الا ما يوجد في المصادر المسيحية)^(٢).

في كل ما قدمنا من قول ووصف للمكان الحربي وسماته وانماطه، نامل ان قد برزنا اثر البيئة على هذا الشعر، واثرا اماكن الحروب والمعارك على احساس الشاعر وعواطفه ومن ثم في نتاجه الادبي، واظن ان الامر كان واضحا لاسيما عندما وقننا عند مدح الابطال، ورثاء الشهداء، وهو مما استنزف صور الشاعر الاندلسي وخيانه في رسم الواقعة ومالت اليه من نتائج مهما كانت، وما تركت من اثار انتهت بنباية المسلمين، واحتلال ديارهم، وخسران مجدهم الى الابد.

^١ يوم العروبة هو يوم الجمعة وفيه حدثت المعركة .

^(١) ديوانه: ص٦٨، البسطي اخر شعراء الاندلس: ص١٧٢.

^(٢) البسطي اخر شعراء الاندلس: ص١٧٢.

ان قصيدة الحرب في الشعر الذي كان مضمار دراستنا في الاندلس. انطوت على سمات تجلت في اهمية وصف المكان اولا، ثم زمان المعركة او الوقعة ونتائجها ثانيا. ووصف ابطالها ثالثا. ولم تخل تلك القصيدة من التعريج على ادوات الحرب، لاسيما الاساطيل الحربية^(١) التي كان لها دور مهم في وقائع المسلمين البحرية. وارى من الضروري ان نتعرف على بعض خصائص هذه الاساطيل. بعد ان وقفنا على اماكن المعارك وابطالها.

اذا ما عاودنا ادراجنا الى قصيدة الرصافي البلسني -سارّة الذكر- لنقف على لوحة الاسطول والسفن البحرية التي قادها وجدناها لوحة قد رست رسما بارعا، وانها - اللوحة- تمازجت مع صفات الممدوح الاخرى التي كونت القصيدة على نحو ما ذكرنا من صنعة وتميز، يقول في لوحة مصورا تلك السفن.

تَسْمُ الْفُلْكَ مِنْ شَطِّ الْمَجَازِ وَقَدْ نُودِينَ يَاخِيْرَ أَفْلَاكِ الْعَلَّاسِيْرِ
فَسَرْنَ يَحْمِلْنَ أَمْرَ اللَّهِ مِنْ مَلِكٍ بِاللَّهِ مُسْتَنْصِرٍ فِي اللَّهِ مِنْصُورِ
يَوْمِي لَهُ بِسُجُودِ كُلِّ مَحْرُكَةٍ مِنْهَا وَيُولِيهِ حَمْدًا كُلَّ تَصْدِيرِ
لَمَّا تَسَابَقْنَ فِي بَحْرِ الزَّقَاقِ بِهِ تَرَكْنَ شَطِيْهَةً فِي شُكِّ وَتَعْبِيرِ
أَهَزَّ مِنْ مَوْجِهِ أَتْنَاءَ مَسْرُورٍ أَمْ خَاضَ مِنْ لَجَّةٍ إِحْشَاءَ مَذْعُورِ^(٢)

انها صورة حركية طبيعية مباشرة لحركة هذه السفن وهي متلحفة للنزال ،او على الاقل الوصول الى جبل الفتح، وهو مكان الحرب، او قل المكان الذي نزله الممدوح. ولم يكتف الرصافي بهذا الوصف انما اضافت اليه ثقافية دينية. بالاقتراب من القران الكريم، ثم استقصاه لمظاهر الطبيعة من حوله الصامته بالورود، والحية بالظيور

(١) تعد مدينة المرية قاعدة اسطول الاندلس، ينظر وتاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة اسطول الاندلس: د.عبدالعزیز السيد سالم. مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص٢٣-٥٦، وللمزيد عن البحرية في الاندلس: تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس: د. عبدالعزیز السيد سالم، د. احمد مختار العبادي، دار النهضة - بيروت، ١٩٦٩. الادب الاندلسي -موضوعاته وفنونه- ٢٧٣-٥٦٣، الشعر الاندلسي في عهد بني الاحمر -صورة جهادية بطولية-، ص١٣٤-١٣٥-١٤٤-١٤٧.

(٢) ديوانه: ص٨٩-٩٠، والانتقال بين الواو والياء في القافية المرذفة جميل وممتحن للتقارب الصوتي بين الحرفين. ينظر: الاصوات اللغوية: د. ابراهيم انيس، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٣، ٩٦١، ص٤٣.

استكمالا من الوصف الرائع الذي بدأ به، واحكاما لتسيج القصيدة كلها، فيقول عن تلك السفن:

ذو المنشآتِ الجوّاري في أجرتِها
أغرئُ الميأةِ وأنفاسَ الرياحِ بها
من كلِّ عذراءِ حُبلى في ترائبِها
تخالها بينَ أيدي من مجاذفِها
وربما خصاصتِ التيارَ طائرةٌ
كأنما عبرتْ تَحْتَمالَ عائمةٌ
حتّى رمتْ جبلَ الفتحينِ من كثبِ
شكّلُ الغدائرِ في سدلٍ وتضفيرِ
ما في سجايها من لينٍ وتعطيرِ
ردعانٍ من عنبرٍ وردٍ وكافورِ
يغرّقن في مثلِ ماءِ الوردِ من جورِ
بمثلِ أجنحةِ الفتسخِ الكواسيرِ
في زاخرٍ من ندىٍ يمناهُ معصورِ
بساطعٍ من سناهُ غيرِ مبيهورِ^(١)

وفي الواقعة البحرية التي احدثها الاسطول المريني بالاسطول القشتالي، وغيرها انتصر الاسطول الاول وهزم القشتاليون سنة (٧٤٠هـ)^(٢) كان لابد ان نجد صداها في المادة الشعرية لهذا العصر فانبرى ابن الخطيب يدون احداث هذه المعركة، ويسوق النصر كله لابن الاحمر -يوسف الاول- ذاكرك تلك السفن وهي تنقض على الاعداء بسرعة وتفتك بهم قدارة على الظفر بالنصر وتخطي المصاعب والاهوال ولاسيما احوال البحر ومصاعبه التي بقي العرب حتى في المشرق يخافون سطونها وينهبون عنفوانها^(٣) يقول في تلك المعركة:

ولك الجوّاري المنشآتُ سوابِحاً
فتحّ القوادمِ للفنا قد أبرمتْ
من كلّ مضاعٍ كأنّ شرّاعه
في اليمّ أمثال الصقورِ الحومِ
أمرأٍ بها كفّ القضاء المبرمِ
قطّع السحاب سرت بنوع المرزمِ^(٤)

(١) ديوانه: ص ٩١-٩٢. الآية القرآنية: (ولهُ الجوّارِ المنشآتُ في البحرِ كالاعلام). الرحمن: الآية ٢٤، تأريخ البحرية: ص ٣٠٢-٣٧٠.

(٢) انظر في هذه المعركة: الفتن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي: ٣٠٠/٢-٣٠٢، تأريخ البحرية: ص ٣٥٩.

(٣) ينظر: شعر الحرب في عصر الرسالة: ص ١٥٤.

(٤) ديوانه: ص ٥٨٥. انصاع: رجع مسرعا، المرزم: الريح اوريح الشمال الباردة. والمرزمان: نعمان من نجوم المطر.

وقد تجاوزت ابيات النص على الستين بيتاً وهو يركز على الروح المعنوية العالية التي ظهر بها الجيش الاسلامي، وفي مقدمته تلك السفن التي تحمل القوات والعدة، وهي متسلحة بروح العزيمة والايان لملاقاة الاعداء.

وعلى الرغم من هذه الصفات الطيبة التي ادار فيها ابن الخطيب معاني ابياته الا انه وقع في بعض الاخطاء الاملوية التي أسأت الى النص من حيث الوجبة الفنية ، واهم هذه الاخطاء هو انه قد كرر بعض الصور التي اسهب فيها الوصف في اول الابيات ، كتكرار الاقتباس النصي من القران الكريم في مضمون الاية السابقة ، يقول :

تلك الجواري المنشأت صدقأها مهج العدا ، وخلوفهن من الدم
وحجالهن من البنود فلا تكرم وصلاً بدينار لهن ودرهم
نصرت عباد الله -جل جلاله- وسطت بعباد المسيح ومريم^(١)

فالابيات وان زينها التشخيص وخرجها عن المألوف بوصف سفن المسلمين كالعرائس وصدقها مهج الاعداء ودمائهم ، الا ان التكرار الذي ولده الاقتباس جعلها باردة مألوفة غير ذات خيال أوجدة .

ان المكان الحربي حمل صفات الاندلسيين وسجل مفاخرهم وهزائمهم . انه تجربة معاشة - وان كانت مريرة - الا انها صادقة راينا فيها اثر البيئة على الانسان ومشاعره بلا تكلف او تصنع -انه - المكان الحربي - صورة ناطقة لتجارب مختلفة في احوال عدة .

المكان الديني.

مثلما شكلت الامكنة الطبيعية والامكنة الاجتماعية والامكنة الحربية ملمحاً من ملامح دراسة المكان (انماطه ودلالاته وخصائصه) عند الشاعر الاندلسي مثلما اباننت الامكنة الدينية عن مثل هذه الملامح. وشكلت صنو ذلك الاثر وتلك الدلالات. ولاسيما ان الاندلس كانت تشهد الصراعات المختلفة والتي لا يختلف اثنان في كون اغلب هذه الصراعات^(٢) يمكن ردها لاسباب دينية تتعلق بالمسيحية والاسلام الشريعتين اللتين يتبع

(١) ديوانه :ص ٥٨٦.

(٢) يرى د. محمد مولود المشهداني ان الاندلس شهدت جواً من التسامح الديني منذ ان دخلها العرب المسلمون فاتحين محررين وتداخلت اجواء العبادة الاسلامية والنصرانية داخل البلاد، وامتزجت اصوات المآذن مع اصوات للكنائس. ينظر: الشعر الاجتماعي في الاندلس: ص ١٢٨. وهذا الامر ان بدا صحيحاً فكان لي بدء-

احكامها الناس في تلك البلاد . ونظرا لاهمية الدين في حياة الانسان - المسلم والنصراني - اذ هو الصلة بينه وبين خالقه، نجد اوصافا لاماكن العبادات والطقوس الدينية، وتنعكس اهمية هذه الاماكن في فكره وفلسفته اليومية وابداعاته المتنوعة، فلا مفر الا اللجوء الى الله - سبحانه - في كل صغيرة وكبيرة، شاردة وواردة تمر في حياة البشر، فهو - عز وجل - الملتجأ الوحيد والمنقذ المضمون ، لاسيما في امة تعالت عليها الخطوب، ودارت بها الدوائر كالامة المسلمة في الاندلس.

ومن خلال استقراءنا النصوص الشعرية الاندلسية، رأينا اننا نلمس اثر المكان الديني واتجاهاته ودلالاته من خلال المحاول الآتية:

أ- الحجازيات (استحضار مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم- والحنين إليها وزيارتها).

ب- الاحتفالات بالموالد النبوية، ولسيما في العصور الاخيرة من الاندلس.

ج- اغراض شعرية ذات معان دينية جسدت المكان الديني في نصوصها وهي:

١) المديح النبوي.

٢) الرثاء.

٣) الزهد والتصوف.

د- ذكر الاديرة والكنائس واماكن الديانا النصرانية.

هـ- دلالات المكان الديني.

الحجازيات

قصائد ومقطعات اتصلت بذكر اماكن الحجاز والمدينة المنورة والشوق الى قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وزيارته والسعي لرؤيته^(١). وهي من اختراع وابتكار الشاعر العباسي الكبير الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) اذ وردت في شعره اول ما وردت ومن ثم اصبحت ميدانا من ميادين الشعر، واحتلت مكانة جيدة في بنية النص الشعري العربي، اينما كان وحينما قيل.

١- امر العرب والاسلام في الاندلس، ايام كان المسلمون اقوياء اشداء في حين انتقل هذا الوضع رأسا على عقب حينما تمكن النصراني من زمام الامور، وتقلدوا مناصب الحكم. وما احداث حرق المدن وتدميرها، وقلب مساجدها كنائس ومحاولاتهم نحو أي معلم اسلامي الا برهانا ساطعا ودليلا قاطعا على صحة ما نقول. (١) ينظر: حجازيات الشريف الرضي: د. مصطفى كامل الشيبني بحث منشور في (الشريف الرضي دراسات في ذكراه الالفية) بغداد، ١٩٨٥، ص ٢٧.

(والمكان الحجازي يحمل دلالة مزدوجة تأريخية - دينية)^(١) لان تلك المواضع لها خلود زمني ومكاني في نفس المسلم ومشاعره وعواطفه، فهي مكان رسوله الامين - صلى الله عليه وسلم - وهي مركز استقطاب المسلمين في كل انحاء العالم. عند الشاعر الاندلسي جسدت الامكنة الحجازية مفارقات كثر في حياته وشعره فهو: -يرردها بصدد الاشتياق لها، ويأمل زيارتها مهما كانت الظروف. -يحن اليها في اوقات معينة، عند ما يبخل عليه مكانه الذي يحيا فيه بتوفير الراحة والامن والاستقرار.

-يذكرها هرباً لظروف نفسية، وخارجية احاطت به من كل جهة، وهذا الامر يزداد وحدة كلما اتجهنا صوب سقوط غرناطة اذ كانت الامكنة الحجازية، وشخصية الرسول -صلى الله عليه وسلم- المهرب الوحيد تأريخيا ودينيا. -إن عدداً من الشعراء الاندلسيين زاروا المدينة المنورة وادوا مناسك الحج فعلا. فلا عجب ان يذكروها شعراً^(٢).

-إن شعراء استقلوا وعرفوا بغرض المديح النبوي^(٣) وهم في هذا المديح يصفون اماكن الممدوح وفضائله -صلى الله عليه وسلم-. ولذا ترددت هذه الاماكن بين مفاصل القصيدة المدحبة كما ترددت اماكن الممدوحين من البشر في الحروب والمعارك، واعياده الاجتماعية وغيرها على نحو ما رأينا في الفقرات السابقة من البحث.

ابن السِّدِّ البطليوسي الذي ذكر مواضع من بلاد العرب في شعره لاسيما بلاد المشرق التي وردت في اشعار الجاهليين والاسلاميين^(٤) له قصيدة يخاطب بها مكة المكرمة^(٥) يلج المكان -مكة- من حيث اهميتها الدينية، وانها مفداة من نفوس المسلمين الكريمة الابية لما تخطاه من اهتمام وما تلقاه من عناية لنسمعه في مقدمته هذه:

(١) المكان في شعر الشريف الرضي - دراسة فنية: ص ٢٥.

(٢) منهم الشاعر الرحالة- ابن جبير - ينظر : مجموع شعره: ص ٥٧-٦٠، ص ٦٢، ص ٦٥، ص ٨٦، ص ١٠.

(٣) كابن الجنان الانصاري (ت ٦٤٦هـ او ٦٤٨هـ) شاعر المديح النبوي بالاندلس في القرن السابع الهجري:

تحقيق: د. منجد مصطفى بهجت - الموصل ١٩٩٠.

(٤) ينظر: مجموع شعره: مقدمة المحقق، ص ٩٥.

(٥) تمد مكة رمزاً دينياً في الاغراض الشعرية كافة، كالمديح. انظر: ديوان ابن حمديس: ص ٦٣، ص ٥٠٠،

والغزل. انظر: ديوان الاعمى التطيلي: ص ٦٧.

أ مَكَّةُ تُفَدِّيكِ النُّفُوسَ الكَرَامِمْ
وَكَفَّتْ أَكْفُ السُّوءِ عَنْكَ وَبُلَّغَتْ
فَاتِكَ بَيْتُ اللَّهِ وَالْحَرَمُ الَّذِي
وَقَدْ رُفِعَتْ مِنْكَ القَوَاعِدُ بِالتَّقَى
وساويتِ في الفضلِ المقامَ كلاكما

ولا يرحمتُ تنهَلُ فيكِ الغمائمُ
مُناها قلوباً كي تراكِ، حوائِمُ
لعزَّتْ له ذُلُّ الملوِكِ الاعظامِ
وشادتكِ أيدٍ برودةً ومعاصِمُ
تنالُ به الزلفى وتُمحى المائِمُ^(١)

انه داعي الشوق الى ذلك المكان ولذا؛ يخاطبها بصيغة المنادى مستخدماً (الجمزة) وهي عند النحويين تستخدم لنداء القريب^(٢) وعليه تكون مكة قريبة الروح والعقل والتفكير والمشاعر لكنها بعيدة المنأى والمكان واللقاء. انها هواجس دفينه تختفي خلف نفس عاشقة لمكان ما تثير دلالاته وتكشف حقائقه عملية الشوق والحنين الى شئ ربما يصعب الحصول عليه. ان صيغ الاستفهام الشائعة في المقطع الثاني للنص، بعد المقدمة التي ذكرناها ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم- وذكر سيدنا ابراهيم (عليه السلام) لتؤكد لنا بقاء هذا المكان خالدا عند الشاعر، فكم تمنى ان يطوف فيه. وان تمحى خطاياهم بذلك الطوفان ولكم تمنى ان يهنأ بسقيا حجيها، وان يروي ماء زمزم نفسه الهائمة، ولكم اراد ان يلبي نداء الزوار (لبيك اللهم لبيك... لبيك لاشريك لك لبيك..) انه يقول:

فِيالِيَتِ شعري هل أرى فيكِ داعياً
وهل تمحونَ عني خطايا اقترفتُها
وهل لي من سقيا حجيحك شربة
وهل لي في اجرِ الملبينِ مقسمُ
وكم زارَ مغناكِ المعظمَ مجرمُ
ومن أين لأيضحي مُرجيكِ آمناً
لن فاتتني منكِ الذي أنا رائِمُ

إذا مَادَعْتُ لله فيكِ الغمائمُ
خَطَى فيكِ لي او يعملاتِ روايِمُ
ومن زمزم يروي بها النفس حانِمُ!
إذا بذلتِ للناسِ فيكِ المقاسِمُ؟؟
فَحَطَّتْ به عنه الخطايا العظامِ
وقد امننتِ فيه الميها والحمائمُ
فان هوى نفسي عليكِ لدائِمُ^(٣)

(١) مجموع شعره: ص ١٠٩-١١٠.

(٢) ينظر: شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التربية للطباعة والنشر، بغداد، (د.ت): ٢٥٥/٢.

(٣) مجموع شعره: ص ١١٠.

ثم يتجلى عامل البعد المكاني بوضوح تام عندما نورد خاتمة النص، ومنها يبعث ابن السيد سلامة الى الكعبة والى رسول الله صلى الله عليه وسلم- ويأمل ان تحمل الرياح سلامه واشواقه فهي اسرع في الوصول واكثر امانا وسلامة:

عليك سلام الله ماطافاً طائفاً بعبتك العليا وما قام قائم
إذا نسم لم تهد عني تحيةً إليك فمهد بها الرياح النواسم
اعوذ بمن اسنك من شر خلقه ونفسي فما منها سوى الله عاصم
واهدي صلاتي والسلام لأحمد لعلي به من كبة النار سالم^(١)

عند ابن خفاجة تحتل الحجازيات جزءا كبيرا من قصائده. ويعود هذا الاحتلال الكبير الى انها ترد ضمن اغراض شعره المختلفة. وهي من حيث الورد تنقسم على قسمين:

الاول: الحجازيات التي ترد في مقدمات تلك القصائد. والآخر: القصائد التي تأتي اسماء الحجازيات ودلالاتها بين ثنايا هذه القصائد^(٢).

وهذه الكثرة في ذكر الاماكن الحجازية عند هذا الشاعر الكبير لم تضر دون عناية او اهتمام من لدن الباحثين الفضلاء الذين كان الادب الاندلسي شعرا ونثرا وتوشيحاً- ميدان دراستهم وابعائهم، فاعتنوا بهذه الاماكن واوسعوها دراسة وتحليلاً. وخرجوا منها بنتائج موضوعية مطمئنة^(٣).

وتماشياً مع طبيعة المنهج العلمي الذي اعتمدها في بحثنا هذا لا بد من ان نذكر هذه الحجازيات، وما ادته من اثر في شعر ابن خفاجة، وما عبر عنه الشاعر من خلالها.

فبالنسبة للشاعر؛ فطالما رددنا انه مر بحالات انتكاسة في حياته الشخصية، فسقطت بلنسية، وقتل ممدوحه ابراهيم بن تاشفين- الذي لاجله عاد السئ الشعر بعد تركه-، ومن ثم ازمات نفسية تلاست مع هذه الوقائع لكفيلة بان يجد اسباب الهروب من هكذا واقع مرير، فربما نظر الى الطبيعة مرة والى سموخها وعنفوانها بالجبل مرة، وربما رأى متنفساً في حروب ممدوحه وانتصاراته مرات اخر وهنا لاذ السئ المكان

^(١)مجموع شعره:ص ١١١.

^(٢) ينظر ، حجازيات ابن خفاجة- دراسة فنية:- د. احمد حاجم المورد، مج، ٢٨، ع ١٠٠، ص ٢٦.

^(٣) ينظر: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الاندلسي: ص ١٨٤-١٨٦، حجازيات ابن خفاجة: ص ٣٣.

الديني، والى كعبة المسلمين، هروبا روحيا، ومشاركة وجدانية من ارهاصات حياته وانفعالاتها الدائمة.

وبالنسبة للمكان؛ فلا عذر لابن خفاجة وغيره من اهل الاندلس من المحاكاة والنقل، لاسيما وان ديوان الشريف الرضي دخل الاندلس بعد وفاته بقليل^(١)، وانه- ابن خفاجة- هو من جلب على نفسه الرزية عندما ذكر في مقدمة ديوانه انه قد اطلع على شعر الرضي وغيره من شعراء المشرق الكبار كبهيار الديلمي وعبند المحسن الصوري، وانه تأثر- فعلا- بجودة معانيهم، وحسن رسمهم لصورهم، ولطافة الفاظهم وشفافيتها^(٢).

ولاتخلو حجازيات ابن خفاجة من تداخل مع اغراضه الشعرية-المديح والغزل-، ونجد ايضا عناصر المكان الطبيعي متناثرة هنا وهناك داخل هذه القصائد، وهي-ومن المسلم به- تنفث امات الشاعر وكوامنه واحاسيسه عند ذكرها، لاسيما بكثافة واضحة، وتردد ملحوظ في مثل قوله رثيا:

وفي ما تودى الريح عرفك سلام
تحلت به ما بين سلمى ومنعج
لقد هزني في ربطة الشيب هزة
ورب لياله بالغميم ارقتها
ولم ادري ما اشجى وما ادعى الى الهوى
فليت نسيم الريح رقرق ادمعي
وعاج على اجزاع وادبذي الغضا
فيا عرف ريح عجاج من بطن لعلج
بما بيننا بالحقف من رمل عالج
تلدد بدار القصف عني ساعة

ومما يشب البرق نوار غرام
سوالف اسام سلفن كرام
ارتني ورائي في الشيب اسامي
لمرضى جفون بالفراغ نيام
أخففة برقي ام غناء حمام
خلال ديار باللوى وخيام
فصافح عني فرع كمل بشام
يجر على الانداء فضل زمام
وفي ملتقى الأرتى بسفح شمام
وأبلغ نداماها أعز سلام^(٣)

(١) بنظر: مطمح الانفس..ص ٣٧.

(٢) بنظر: ديوانه: ص ٦.

(٣) م. ن: ٥٢-٥٣. (الابيات بتصرف).

ان هذه التراكمية في ذكر الامكنة الحجازية وهي: (سلمى ومنجج والغميم وانفراوات واللوى ووادي الغضا ولعلع، وعالج) توحى بحالة نفسية منشجبة لم تر في كثافة المكان الا ترويحاً عن مشاعرها وبعداً عن واقعيها فالمكان هنا يعكس حالة ابن خفاجة انتمامة ويتطابق معها.

ان ذكر هذه الامكنة المقدسة، وتلك البقاع الطيبة، ما كان الا من وحي خيال ابن خفاجة، وشديد تعلقها به فهو يقول عنها (جاءت على انها خيالات تنصب ومالات تضرب ، تدل على ما يجري مجراها من غير ان يصرح بذكرها)^(١) ومن هنا نلاحظ انه ينادى من بعيد على تلك الاماكن، ويحمل اليها معاني الشوق، ويتمنى لو يخطى بالوصول اليها يوماً، فيقول:

ويبانة الوادي بمنعرج اللوى أتصغي على شحط النوى فأقول
ويانفحات الرياح من بطن لعلع الا جاد من ذلك النسيم بخيل
فيا خيم نجد دون نجد تهامة ونجد ووخد للسرى وذميل
وياريم نجد والعوادي كثيرة بحكم الليالي والوفاء قليل^(٢)

ولاشك في ان البيت الاخير اباح عن كنه مشاعر ابن خفاجة، وادار الابيات السابقة حول شكواه التي طالمت وكثرت بسبب العاديات التي مر بها، ومن ثم قلة وفاء الدهر، والزمان، فلا مهرب الا لتلك الاراضي المحمدية التي فيها ما يساي النفس، ويطرد همومها ولو على سبيل التذكر او الخيال.

وفي عصر الموحدين نرى الحجازيات واماكن المدينة المنورة وما يتعلق بسيا بادية متغلغلة داخل القصيدة التي تقال في المديح النبوي على الاغلب (فالشاعر يتحدث فيه عن شوقه وتلفه الى زيارة قبر النبي او الى الاماكن التي شهدت يوماً ما اشراقه الرسالة المحمدية، وعاشت لحظات الدعوة في محنتها وانتصارها، في شدتها ورخايتها.

(١) ديوانه: ص ٢٠٤.

(٢) م.ن: ص ٢٩٣-٢٩٤ (الابيات بتصرف).

* كتبت رسالتان للماجستير في المديح النبوي الاولى: النبويات في الشعر الاندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي: للباحث موفق مصطفى جاسم، كلية الاداب- فيجامعة بغداد، سنة ١٤١٨هـ-١٩٩٦م. والاخري، قصيدة المديح النبوي في الشعر الاندلسي من بداية عصر الموحدين حتى سقوط غرناطة: للناحت. صديق بتال حوران العامري، كلية التربية في جامعة الانبار، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

مكثراً من ترديد أسماء أماكن حجازية لاسيما (طيبة) التي تعني المدينة المنورة، ومواضع أخرى كمنى ويثرب وزمزم والبيت العتيق ونجد والخيف والحطيم واللوى والغور، إلى ما هناك من أسماء موحية تحوي على شحنة تاريخية كبيرة، تعطي للقصيدة بعداً زمنياً وتثير حولها جوارحاً روحانياً، وعبقاً دينياً يزيدان من تأثيرها وقوتها^(١).

لقد اهتم د. السعيد بكثرة الامكنة الحجازية التي ترد في القصيدة الاندلسية. وكشف عن ابعاد ودلالات هذه الكثرة. وعلّاهم دلالة واكبر بعد هو الجانب التاريخي الذي يترك اثرًا ملموساً على المكان الديني، ويرسم انماطه واتجاهاته. فقمين بنا ونحن ندور حول هذا المكان ان نقب عن تلك الدلالات والانماط، ونبين اهميتها الموضوعية والفنية.

علي بن محمد بن حسن الانصاري الاشبيلي (ت ٦٣٣هـ)^(٢)، يتحدث في إحدى قصائده التي قال عنها المراكشي: (وانشدت عليه لنفسه من قصائده الحجازيات)^(٣) عن رحلته إلى المدينة المنورة وعن عيمه التي اضناها السرى واذابها النصب، وما زاد هاجر الهجير إلا تعباً ورهقاً، إلا انها ابت الراحة والوقوف دون مقام الرسول صلى الله عليه وسلم - فهي كصاحبنا مشتاقاً إليه، هائمة بحبه لنسمع لحديث رحلته هذه:-

ياحداة العيس رفقا إنتها	شكت الجهد وبعده المرتضى
فهي تستشقى هبات الصبا	كلما وافقت بنجيد علما
أنسوها بالتذائر إنتها	نعم تفهم تلك النعما
طاويات لم يدع منها السرى	ودخيل الشوق إلا الاعظما
تقصد الحوم من أعينها	نظفا ليست تروى من ظما
ويمد السير من أعناقها	خيزراناً حين تبدي السأما ^(٤)

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ٢٧٤-٢٧٥.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن حسن الانصاري الاشبيلي جيانى الاصل، نزل بمراكش. كان اديب النفس كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً. بنظر: الذيل والتكملة: ٢٨٧/١/٥.

(٣) م: ٢٩٣/١/٥.

(٤) م: ٢٩٤/١/٥.

وبمجاورة الاصحاب والخلان يكشف لنا النص مزيداً من صفات التعب والمشقة التي عانوا منها رفاق الطريق، واصحاب الدرب الطويل، ولكن؛ لابس عند الوصول ان تمحى اثار العناء وان تكشف اعباء السفر بمجرد انتهائه، او حتى بمجرد الدخول في حدود هذه الاماكن الطيبة التي تفوح برائحة مسك وشذى، لما فيها من قداسة وما تحيطها من روحانية:-

يا خليلي رويداً أتتها	لتعاني الشوق مثلي فاعلمنا
أشقاها نفحةً جديدةً	راحة المشقات أن يتبسما
وعداها بعداها ظفراً	وسروراً يوم تأتي الموسما
فيه تمحق آثار السرى	وتباد البيد حتى تعدما
إيها قد حملت شعناً اذا	ما بكوا قلت غماماً ساجماً ^(١)

انهم شعث بطول الرحلة، وهم كذلك لانها عانوا ما عانوا في سبيل الوصول الى ديار الحبيب (صلى الله عليه وسلم) والبكاء عنده. لان المكان بعيد، والزيارة واجبة فصلا عن ظروف الزائرين الصعبة وسظف عيشهم ومتاعبهم التي ما برحوا يتناسونها ليحاولوا الظفر بمكان جديد امن، ليكون فيه زمانهم الغابر ومكانهم الاول.

وعند ابن الجنان الانصاري (ت ٦٤٦هـ او ٦٤٨هـ)، وهو شاعر الويع النبوي في هذا العصر تقف الامكنة الحجازية موقفاً اخر، فالشاعر اختص بهذا الغرض فمن الطبيعي ان نجد اثار الامكنة التي تدل على الممدوح او الرحلة اليه، هنا وهنا بكثافة^(٢) باساليب بلاغية وبيانية متنوعة.

ففي مقدمة قصيدته في الحج، يذكر تلك الاماكن وكيف اضنت تلك الرحلة اصحابها، يدفعهم في ذلك شوق وتوق لرؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم- وزيارته وطواف البيت العتيق امنية يتمناها كل مسلم وحلم يحلم بها المؤمن في حياته، يقول وقد استخدم حرف الجيم -قافية- وهو حرف مجهور شديد صعب في القافية^(٣) والحقه الف الاطلاق التي تزيد من ارتفاع الجرس الموسيقي للقافية^(٤):

(١) النزل والتكملة: ٢٦٤/١/٥.

(٢) ينظر: ديوانه: ارقام القصائد: (٣٨، ٣٧، ٢٩، ٢٤، ٢٢، ١٩).

(٣) ينظر: موسيقى الشعر: ص ٢٤٨.

(٤) ينظر: القافية في شعر المتنبى: د. هادي الحمداني، مجلة الضاد- بغداد، ع ٤، ١٩٩٠: ص ١٣١-١٣٠.

تذكران ذكرى أو تهيج اللواعجا
ركاباً سرت بين العذيب ويارق
تيممن من وادي الارك منازل
لهن من الاشواق حاد فان ونت
ألا بأبي تلك الركاب إذا سرت
تراهم سواماً من سراهم فاصبحوا
لهم في معنى أسنى المنى ولدئ الصفا
فعالجن اشجاناً يكاثرن عالجاً
نوابيج في تلك الشعاب نواعجاً
فيطوين الآ في الارك سجاجاً
حداة يرجعن الحنين اهزجتاً
هوادي يملن الفلاة هوادجاً
رسوماً على تلك الرسوم عوالجاً
يرجون من اهل الصفا المناهجاً^(١)

ومن ثم يقص علينا ابن الجنان كيف نعموا بهذه الزيارة، ومنها طافوا بالبيت واقبلوا يلثمون الجدار، وهذا ما يبرز طاعة المسلم لربه، وصدق اتباعه لنبيه -عليه الصلاة والسلام- ما ان يصل الى تلك البقعة المباركة (مكة) ويؤدي مناسكها:

سكماً بهم طوقاً بيت مطامح
فابدوا من الصدعات ما كان كامناً
ولما دنوا نودوا هنياً وأقبلوا
وقضوا بتقبيل الجدار ولثميه
إذا اعتنقوا تلك المعالم خلّتهم
قلته ركب يمموا نحو مكة
أراهم قباباً للعلا ومعارجاً
وأذروا دموعاً بكل قلباً مناشجاً
إلى الركن من كل الفجاج أراجاً
حقوقاً تقضى للنفوس حواججاً
أساور في إيمانها ود مالججاً
لقد كرموا قصداً وجلوا مناسجاً^(٢)

انها بشرى وكرامة، وهم يقيمون بارحاء ذلك المكان، وقد فتحت ابواب الرضا، واجيبت الدعوات:

فبشرى لهم كم حولوا من كرامة
يفتح باباً للقبول وللرضا
فكانت لما قد قدموه نتائجاً
ووفدهم أضحى على الباب والجا

وفي قصيدة اخرى^(٣) يرسل سلاما الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم- وهي قصيدة طويلة تكونت من مئة واربعين بيتاً يبدأ كل بيت من ابياتها ب" سلام على.." وهي

(١) ديوانه: ص ٧٤-٧٥.

(٢) م.ن: ص ٧٦.

(٣) ينظر: م.ن: ص ٨٠-٩٦.

لاتخلو من حوادث تاريخية وقعت للمصطفى -عليه الصلاة والسلام- في حياته، وحوادث وقعت للامة الاسلامية بعد وفاته وفي كل ابياتها او اغلبها نجد رموز المكان وايمالته ظاهرة واضحة في النص بشكل فعلي ومؤثر .

وعن باقي قصائد ابن الجنان فهي تصب في المديح النبوي؛ وبذا هي تكون سمة او اتجاه اخر من اتجاهات المكان الديني في الشعر الاندلسي سنتكلم عنه في فقرة لاحقة. اما المراكشي- صاحب الذيل والتكملة- فقد اعجب بشعر شيخه الرعيني (ت٦٦٦هـ)^(١) صاحب كتاب (برنامج شيوخ الرعيني)، فاراد ان يختتم جملة شععار كانت بينه -الرعيني- وبين ابن الجنان وابن عميرة، بقصيدتين حجازيتين ربانيتين لشيخه على حد قول المراكشي يقول في اولهما، وقد هام قلبه بحب تلك الديار والحنين اليها:

حنيني إلى البيت العتيق شديدُ وشوقي إلى وادي العقيق يزيدُ

ومن الطبيعي ان يترجم هذا الحنين الى امانٍ كثيرة وامل متوقعة تزيل لنا اسباب الهيام الابدي بين الشاعر وتلك الامكنة، وهذا ما اكدته الابيات الاخرى ودلت عليه باساليب تقليدية ك (بيت شعري) التي يكثر منها الشاعر للتمني ونيل ما يصعب حصوله، ومن ثم حيرة الشاعر وقلقه عن طريق الاستفهام ، وما يخرج اليه من معان، ولاننسى ان الامكنة (زمزم، طيبة، ضريح محمد، -عليه الصلاة والسلام-) فعلت فعلها في تكرار هذه الاساليب وشد الابيات حولها. هاكها يحكي لنا شوقه وحنينه:

وصولٌ فيحظي بالوصالِ عبيدُ	فياليت شعري هل يباح إليهما
وهل لي على تلك البقاع وفودُ	ومن لي ان ادعى إلى حرمي هدىً
لها بين احناء الضلوع وقودُ	وهل نافع لي ماء زمزم غلةً
فيدنو لقلبي من منساء بعيدُ	وهل اثنى نحو الرسول لطيبة
بحيث تلاقى في ثراه حدودُ	والصق خدي من ضريح محمد
بقية عمر تنقضي وتبيدُ ^(١)	فما لي لا أسعى إليها مبادراً

(١) له ترجمة ضافية في مقدمة كتابه المذكور: مقدمة المحقق: ص ١-٧، الذيل والتكملة: ٣٦٤/١/٥.

(٢) الذيل والتكملة: ٣٦٤/١/٥.

اننا نجد الآثار السعادة والفرح والفوز بالحسنى عند الرعيني الذي حكى لنا مبلغ هذا الأمل لزيارة النبي -عليه الصلاة والسلام- وهذا ما لمسناه في الأبيات الأخرى. وهذا ما جعل النص يتسم بأحكام الصنعة وغاية النسيج، وأما الخاتمة فلا تبعد عما ذكرناه من تهافت الشاعر نحو المكان الحجازي، وعلى صعيد الأحكام والنسيج الفني، فاحسن غاية الاحسان عندما جعل حاتمته سلاما من محب، وجعل هذا السلام متجددا، متكررا كلما ذكرت هذه الأرض المباركة، وأنها هذا السلام يرتبط بدموع الرعيني ذلك الإنسان المحب لذكر الرسول -صلى الله عليه وسلم- وذكر مكانه وأهله:

سَلَامٌ عَلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَطَيْبَةٍ يَكْرُ عَلَى رِيعِيهِمَا وَيَعُودُ
سَلَامٌ مَحَبًّا كَلَّمَا ذَكَرَ أَرْضَهَا تَبَادَرَتِ الْإِجْفَانُ مِنْهُ تَجُودًا^(١)

وعند القرطاجني؛ اتسعت أماكن الحجاز في نسق آخر من انساق البناء الموضوعي للنص الشعري فقصيدته التي ذكر فيها تلك الأماكن ضمنها^(٢) أبيات امرئ القيس في معلقته الشهيرة، ومن هنا يمكن أن يكشف النص عن دلالات هذه الأماكن وأهميتها، مثلما كشفت من قبل دلالات الأماكن التي ذكرت في معلقة امرئ القيس أثرها الواضح في تشكيل هذه المعلقة وجعلها تردد على مر العصور عذوبة وحلاوة؛ هذا من جهة. ومن جهة أخرى أن هذه الأماكن الحجازية في قصيدة القرطاجني، وتلك الأماكن البدوية في معلقة امرئ القيس لعبت دورا تاريخيا واضحا، فالأمكنة الحجازية كما قلنا - حملت الدلالة التاريخية وسبقي كذلك إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وأما أماكن امرئ القيس فغابيتها التاريخية أننا كلما ذكرنا (سقط اللوى، الدخول، نوضح، جلجل...) كلما استشهدنا بأبيات ذلك الشاعر الفارس، وبذلك المعلقة الشهيرة. واطن أن هذا التمازج الديني، التاريخي، المكاني في النصين لا تغيب عن مخيلة شاعر ونيلسوف وناقد كالقرطاجني فزواج بينهما ببراعة وإحكام.

إن ذكر (الديار الحجازية والتشبيه بها وذكر معالمها والحنين إليها والتشويق إلى ساكنيتها والبكاء على قاطنيتها ووصف العيس، وحديث السرى ثم الدعاء هناك للنجاة من

(١) اللذيل والتكملة: ٣٦٥/١/٥، انظر ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) التضمنين: (هو استعارتك الانصاف والابيات من غيرك وادخالك اياها في اثناء ابيات قصيدتك).

كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر: أبو الهلال العسكري (ت ٣٩٦هـ): تحقيق: علي محمد البحاون، محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٥٢م، ص ٣٦.

الذنوب والتشفع لمن بذل الجهد الجهد للوصول إلى حضرتها صار واحداً... ن
الموضوعات المهمة في القصيدة النبوية لهذا العصر التي رافقت الاقبال على الذهاب
إلى الحجاز والمكوث إلى جوار قبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم^(١)
وإذا ما ولينا قبلتنا نحو عصر بني الاحمر، لم نجد كبير فرق في استخدام
الحجازيات، عند الشعراء المبرزين في هذا العصر وهو استخدام لم يخرج عن اطار
الشوق الى تلك البقاع وتمني رؤيتها وزيارتها مهما بلغت الشدائد وعظمت
الصعوبات^(٢).

هذا ابو جعفر الرعيني اليربوعي (ت ٧٧٩هـ)؛ وهو قد رحل عن الاندلس، وزار
مكة.. يخبرنا عن نفسه قبل الوصول الى ذلك المكان، وما سيفعله اذ هم وطأه اهل حل
بارضه:

ياراحلاً بيغني زيارةً طيبةً نلتُ المنى: بزيارة الأخيَّارِ
حيَّ العقيقِ اذ وصلتُ لَنَا وادي منى يطيب الأخبَّارِ
وإذا وقتَ لدئِ المعرفِ داعياً زال الغنا: وظفرتْ بالأمطارِ^(٣)

وربما في نهاية الحديث عن الحجازيات، يطيب لنا ان نختم هذا العنوان من البحث
بقصيدة الفقيه فرج بن قاسم ابن لب التغلبي (٧٨٢هـ)^(٤) تبدأ قصيدته بيت لواعج
الشوق والحنين بصورة تجذب القارئ وتشد المتلقي لكثافة المعاني، و غزارة اللفاظ
التي تدل على هذه اللواعج المبرحة، والاشواق المجهدة:

إذا البرقُ نازَ اثاراً أدكاراً لقلبني فأنكئ علي: أورا
تروم جفوني ل نار الهوى خموداً فتهمي دموعي غزارا
فمساء جفوني يسحّ انهمالاً ونار فوادي تهيج أسعارا
اطيل العويل صبّاح مساءً كنيباً ولست أطيّق اصطبّاراً^(٥)

(١) النبويات في الشعر الاندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي: ص ١٢٦.

(٢) ينظر: نفاضة الجراب: ص ٢٨٠-٢٨٤، ريحانة الكتاب: ٥٥/١، الكنية الكامنة: ص ٨٩، ص ٢٥٣.

(٣) نفع الطيب: ٤/١: .

(٤) الخطيب الامتاذ ابو سعيد فرح بن قاسم بن احمد بن لب التغلبي. له قصائد في المدح. ينظر: الكنية

الكامنة: ص ٦٧-٧٠، الاحاطة في اخبار غرناطة: ٤/١٢٥٥ (هامش الصفحة)؛ الدياج المذنب: ٢/١٣٢.

(٥) اعلام المغرب والاندلس في القرن الثامن الهجري: ص ١٨٧-١٨٨.

ثم يستمر في التوظيف للمظاهر الكونية (كالرياح - البرق)، لأنها قادرة على تخطي المسافات، واختراق الزمن وتجاوز العقبات التي تحول بين اشواق التغلبي وبين الممكن الذي اودعه حنينه وشوقه:

أَجْنُ اشْتِياقاً فالرياح حرتْ
حَنِيناً وشوقاً إلى معلم
به أسكن الله أسمى الوري
هو المصطفى المنتقى المجتبي
وأبدي هياماً لسبرق أنارا
حَوِي شرفاً خالداً لأيجاري
نبيّاً كريمّاً وصحباً خبارا
أرى معجزاتٍ وآياً كبارا

وإذا ما وصل المرء الى مثل هذا المكان الذي يعاني فيه المسلم ما يعاني بغية وصوله ، فلا بد انه فوز كبير وحدث مهم في حياته مهما كانت المسافات، وبلغت المعاناة:

فيا فوزَ من فازَ في طيبةٍ
وأصقَ خدّاً على تريبها
وأهدى السلامَ لخيرِ الأنامِ
على حينِ وافى عليه فزاراً^(١)
بلثمِ المغاني جداراً جدارا
واكملَ حجّاً بها واعتمارا

لقد اثارت الحجازيات والاماكن المقدسة في مكة مشاعر الاندلسي وحركت عواطفه لما لها من اهمية دينية تاريخية حفظت في الاذهان والعقول ومن ثم انعكست واقعا على حياة الاندلسي- الاديبي خاصة- فرأيناها في شعره وقصائده بما حفظت وخلدت به من قداسة وعظمة...وتاريخ.

الموائد النبوية والاحتفال بها هي ظاهرة اخرى وعامل اخر من عوامل معرفة سمات المكان الديني في الشعر الاندلسي وعلى الرغم من ان هذه الملمحة شاعت في العصور الاخيرة في الاندلس الا انها تعني صدق التزام الاندلسيين بمولد نبيهم وشدة احتفائهم بهذه المناسبة وعل وقوفنا على قصائد اديب عن غرناطة ومؤرخنا ابن الخطيب في هذه المناسبة ما نرى فيه سمات المكان الديني، وارتباطها بالممدوح وما يولده هذا الارتباط من تسجيل وناثق تاريخية، فالمكان الديني والتاريخ روحان في جسد واحد لا ينفصلان عند كل الشعراء وفي مختلف الظروف.

(١) اعلام المغرب والاندلس في القرن الثامن الهجري: ص ١٨٨.

تشكل ظاهرة المولديات في شعر ابن الخطيب ملمحاً واسعاً قياساً الى شعره واغراضه، وقد اشار الى ذلك الباحثون والمحققون لشعر ابن الخطيب^(١)، (في الديوان تقع على ثمان قصائد مولدية قالها ابن الخطيب في فترات من حياته تشتمل على ٤٦٥ بيت)^(٢) وهي كمية جديرة بالدراسة والاهتمام اذا ما اردنا الوقوف على جانب اخر وتشكيل جديد للمكان الديني عند شعراء الاندلس.

(اما مظاهر هذه الاحتفالات وخصائصها وهي تسير على النحو الآتي:

- ١- قيام الحلقة في ليلة المولد الشريف.
- ٢- دعوة الناس خاصة وعامة.
- ٣- جلوس السلطان واعيان دولته بحسب مراتبهم.
- ٤- تطراف الخدم والغلمان بالبستهم الحريرية الزراعية على الضيوف بمرشحات عطورهم ومباهرهم.

٥- المنقبة النبوية والمدائح الشريفة من قبل منشد بارع جميل الصوت...^(٣)

في مدح السلطان ابي الحجاج النصري بمناسبة احتفال هذا السلطان بليلة الميلاد يورد ابن الخطيب لنا في مدحه ثلاث قصائد^(٤). ومن اماديه قصيدته التي مطلعها:

أُتَارُ سَنَاها وَالديارُ نَوَازِحُ سَنَا بَارِقٍ مَن مَطْلَعِ الوحي لَاجِحُ^(٥)

يتكلم ابن الخطيب- بقلم رشيق ولفظ عذب الوقع- عن صفات النبي (صلى الله عليه وسلم) وعن شمائله في هذه الليلة الكريمة ولا يابه ان يذكر لنا جملة من امور تاريخية قام بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) او حدثت في حياته.

(١) ينظر ديوانه (مقدمة المحقق) ص ١٦٨، القصيدة الاندلسية في القرن الثامن الهجري : د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الاسلامية، ليبيا ١٩٩٦/١، ٣٢٩-٤١٠، شعر لسان الدين بن الخطيب وخصائصه الفنية، وهاج سعيد الامين، (رسالة ماجستير)، كلية الاداب في جامعة القاهرة- قسم اللغة العربية، ١٤٠١هـ - ١٩٨٠، ص ١٥٧-١٧١، النبويات في الشعر الاندلسي: ص ١٤٣.

(٢) ديوانه: مقدمة المحقق: ص ١٦٨.

(٣) احتفالات المولد النبوية في الاشعار الاندلسية والمغربية والمهجرية: د. محسن جمال الدين، مطبعة البصري- بغداد، ١٩٦٧، ص ٢٠.

(٤) ينظر : ديوانه: الارقام: ١٣٣، ٢٤٠، ٣٠٥.

(٥) م. ن: ص ٣٦٧.

فضياء قصور الشام، وهدم ايوان كسرى واخمد نيران فارس.. كلها وقعت ابن حياته -عليه الصلاة والسلام- وهي من معجزاته الخارقة التي الهمها الله -عز وجل- لانبائه، دليل نبوتهم وتميزهم على غيرهم من بني ادم. ان هذا التعليق على ابيات النص مهمته الاطناب في الحوادث التاريخية التي انارت القصيدة، وغايته توضيح فحوى العلاقة واسس التواضع بين المناسبة الدينية ومكانها وتلك الحوادث في سبيل ان نعطي المكان الديني اهميته التاريخية، وان لا تبعد كثيرا عن عنوانات بحثنا وتفرعاته.

اما عن ليلة الميلاد النبوي، تلك الليلة المنارة، وذلك المكان الذي ضم السعادة، وحوى الفرح فيقول عنها ابن الخطيب مادحا ابا الحجاج:

اقمت لميلاد الرسول شعائراً
تباهت بأمداح الرسول محمد
إذا نشرت فيها صحائف مدحه
تلقته من أرض الهند لطائم
هي الليلة الغراء حسبك ليلة
بها الله عن ذنب المسلمين صافح
فطابت بذكرها الرياح النوافح
وذاعت بنشر الحمد منها المباح
ينم بها من مسك دارين فانح
بها نجم دين الله أزهى لاسبح^(١)

وفي مدح ابي سالم المريني (٧٦٢هـ)^(٢) انشد ابن الخطيب قصيدة مولدية اخرى قال عنها انها مذهبه^(٣) وفيها يخاطب ابن الخطيب ذلك الركب الذي رحل الى انحجاز، وكيف وصلوا تلك المعاهد، ونعموا بقرب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وزيارة روضته الشريفة، يقول:

الا يا حداة الركب يبعسون يثربا
بما بيننا من خلة طاب ذكرها
وابصرتم نور النبوة ساطعاً
وناجيتما من مطلع الوحي روضة
ولا قلب إلا خافق في شغافه
معاهد مد الغيم فضل رواقسه
وهب العليل اللدن مستشفياً بها
ويلقون في الله السامة والجهدا
إذا فرغت عوج المطي بكم نجدا
قد اكتنف التراب المقدس واللحدا
أعد لها الله السعادة والخلدا
ولا طرف إلا من مهايتها ارتدا
بها، وكساها من نسجته بُردا
فكان الدواء البان والشيح والرندا^(٤)

(١) ديوانه: ص ٣٧٠.

(٢) (امير المسلمين المستعين بالله ابراهيم بن امير المسلمين ابي الحسن بن امير المسلمين ابي سعيد بن امير المؤمنين يعقوب بن عبد الحق، يكتفى ابا سالم ببيع عام ٧٦٠هـ، وقتل وانا انظر اليه وتوقع وابكي عام ٧٦٢هـ. وله ثمانون وعشرون سنة ودفن بالقلعة). روضة النسرين: ص ٢٧.

(٣) ينظر: ديوانه: ص ٤٧٩.

(٤) م.ن: ص ٤٨٠-٤٨١.

وعن ليلة الميلاء فكانت من اكبر الايات التي مر بها الكون، فقد جعلها الله معجزة اذ بها انار الاسلام- الدين الحنيف- الاكون، واخرج الناس من الظلمات الى النور، وفيها حدث ما حدث من احوال ما كانت لتحدث لولا تدخل رباني حكيم:

وفي ليلة أمبر آية
تخر الجبال الراسيات له هدا
أشادت بها الكهان قبل طلوعها
ومن هولها إيوان كسرى قد أنهدا
فيالليلة قد عظم الله قدرها
واتجز للنور المبين بها وعندا
وصير اوشان الضلالة خضعاً
إليها فلم يترك سواعاً ولا ودا
وعاجل بالأخمار نيران فارس
فلم تر للنيران من بعدها وقد (١)

ثم يسترسل في عرض صفات الممدوح، وانها لما اقام الاحتفال بمثل هذه الليلة فهو اقرب الى روح المسلمين واعيادهم وبذا استحق فخرا اخر، وصفه جديدة تضاف للسي مفاخره واوصافه.

واذا انتقلنا الى ابن زمرك في مولدياته ربما لانرى تمايزا بين مولدياته ومولديات ابن الخطيب من ذكر معجزات النبي - مارة الذكر- وتكرارها في كل مولدية او مدحة (٢). ولكننا نلمح في قصيدة مدح بها سلطانه الغني بالله صفات الجهاد والحرب وعزم السلطان وجوده، وفتوحاته وغزواته وعظمة جيوشه وتحطيمها لجيوش اعدائه (٣) يقول بعد ان ختم الحديث عن ليلة الميلاء ومدح الرسول (صلى الله عليه وسلم):

يا ناصر الاسلام ياملك العلى
الله يؤتيك الجزاء جزىلا
جهز جيوشك للجهاد موقفاً
وكفى بربك كافياً وكفياً
ولتبع الغارات في أرض العدى
والله حسبك ناصراً ووكيلاً
وإليك من سمر الجهاد غريبة
جاءتك تقرضك الثناء جميلاً
واطلت لكني اطبت وعادتي
أفنى مطيباً في المديح مطيلاً
لا زال نصرتك كلما استجدته
لمهم دينك عانداً موصوياً (٤)

(١) ديوانه: ص ٤٨٣.

(٢) ينظر: ديوانه: ص ٣٧٥، ص ٤٧٧، ص ٤٩٥.

(٣) ينظر: ابن زمرك الغرناطي - حياته وادبه-: ص ١٣٨.

(٤) ديوانه: ص ٤٨٠.

ان المناسبة-المولد النبوي الشريف- وذكر الاماكن الدينية هناك في مكة و المدينة وعظمة انتصارات الاسلام في المشرق والتغني بتلك الانتصارات، كانت مدعاة حقيقية لهذه اللوحة في وصف جيش الممدوح واستعداده للجهاد، لان تلك الاماكن تظل نحفز فينا مفاخر الصحابة- رضي الله عنهم- وتظل سجلا امينا لاولئك الرجال الخالدين في سفر الامة الاسلامية فلا ضير ان يكون ممدوح ابن زمرك واحدا من اولئك الذين خلدتهم التاريخ، وحكى اثارهم المكان التاريخي الديني.

هناك اغراض شعرية حملت معاني المكان الديني والمحت الى سماته في الشعر الاندلسي، ومن خلال استقراننا للنصوص الشعرية-مدة الدراسة- وجدنا المدائح النبوية من تلك الاغراض، وهذه المدائح تضم بين ثناياها سمات مكان رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وقبره والهجرة اليه وزيارته^(١).

ومن الشعراء من تكون لهم الامكنة الدينية اثناء مدح النبي- صلى الله عليه وسلم- ملمحا مهما، وخاصة من خصائص المدح. يقول ابن زمرك في مدحه مستعرضا جملة من الامكنة التي نستدل بها على ممدوحه:

حيثُ الربوعُ بنورِ الوحيِ أهلةً
من حلتها احتسب الآمالُ مقترحا
حيثُ الرسالةُ تجلوا من عجايبها
مرأى جمالِ بنورِ الله متّصحا
حيثُ النبوةُ تتلو من غرائبها
ذكراً يغادر صدرَ الدين منشرحا
حيثُ الضريحُ بما قد ضمّ من كرم
قد بدّ في الفخر من يبأى ومن نجحا
ياحيذا بلدةُ كان النبيّ بسها
يلقى الملائك فيها آيةً سرحا
يسادارُ هجرتِهِ يا أفقَ مطلعِهِ
لي فيك بدرٌ بغيرِ الفكرِ مالمحا^(٢)

(١) عن المديح النبوي: ينظر: لباء مألقة: ص ١٤٨، ديوان ابن سهل: ص ٢٠٧-٢٠٩، ص ٢٢٣-٢٢٢، ديوان ابن الجنان، ص ١٤٦-١٥٤، الكتيبة الكامنة: ص ١٣٥، الاحاطة: ٢/٢٩٦-٢٩٧، ٨٠/٨١-٨٠، مسند العلامة: ص ١٩٦.

(٢) ديوانه: ص ٣٧٧، وينظر: ص ٤٠٢.

ان كل بيت من الابيات الماضية مثل حقيقة تاريخية دينية لان هذه الامكنة ترمز للتاريخ الاسلامي بنواحيه كافية، كما انها على واقعتها المعاش لها القدر المعلى في جذب اهتمام المسلمين ونظرهم، فهناك عقائدهم وهناك مفاخرهم وهناك....

وبغض النظر عن شيوع ظاهرة المديح النبوي في المشرق بعد سقوط بغداد (٦٥٦هـ) وان هناك شعراء اشتهروا بقول الشعر النبوي ومدح صاحب الرسالة-عليه الصلاة والسلام^(١) وان هذي المدة التي ظهر فيها هذا الشعر في المشرق تقارب على وجه التحديد المدة التي ظهر فيها المديح النبوي والشعر الديني في الاندلس منذ بدء القرن السابع الهجري ، الا اننا نعثر في كمية المديح النبوي التي قيلت في هذا المكان- الاندلس- على سمات امتازت بها عن المدائح النبوية في المشرق، وتعود جل تلك السمات الى عامل البيئة والمكان الذي عاشه الشاعر الاندلسي، لاسيما بعد عصر الموحدين، اذا اضطربت الامور وسقطت المدن، ومانى المسلمون النكبات السيئسية والعسكرية والاقتصادية، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم- الملجأ الوحيد والامان المرتجى في سبيل استرداد الامانات واعادة الاوطان... اقول: ان المكان وحده هو الدافع لهذا المديح وغيره من الاغراض التي اشتهرت بها الاندلس، كالتبيعة ورثاء المدن والممالك، ومن هنا أرى بتواضع- ان نعرف اسباب الغرض الشعري ودوافعه عند الشاعر ومن ثم العوامل المحيطة به واهمها بيئته ومكانه الذي عاش فيه، ولا يهرب من اسئلة تبادر النفس ونحن نبحث عن جديد الشاعر منها: هل غادر الشاعر مكانه؟

* اشار الدكتور محمد رضوان الداية، ان في هذا النوع من الشعر (تكثر الانارات التاريخية، واسماء المواضع والمواقع ذات الصلة بالمسيرة وبيئاتها). في الادب الاندلسي: دار الفكر- دمشق، ط١، ٢٠٠٠... ص١٠٥.

(١) ينظر: الادب العربي في العصر الوسيط: د. ناظم رشيد، مطبعة دار الكتب- الموصل/ ١٩٩٢، ص ٨٣-٨٨، المدائح النبوية في ادب القرنين السادس والسابع للهجرة: د. ناظم رشيد، دار الشؤون الثقافية- بغداد، ٢٠٠٢، ص ٧، يؤكد د. علي صافي حسين ان هذا الفن- المديح النبوي- استحدثه المصريون في القرن السابع الهجري. لاسيما على يد الشاعر المشهور البوصيري (ت١٩٦٦هـ). انظر: الادب الصوفي في القرن السابع الهجري: دار المعارف- مصر، ١٩٦٤، ص ٢١٦. اما د. عبد الكريم توفيق العبود فيرى ان هذا الفن هو ابن البيئة العراقية، فالبوصيري تأثر بالمرصري (ت٦٥٦هـ)، وهو شاعر عراقي. ينظر: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد: دار الحرية- بغداد، ١٩٧٦، ص ٢٧١-٢٧٢. واقول: ان ابن الجفان شاعر المديح النبوي في الاندلس قد توفي سنة (١٦٤٦ او ٦٤٨) أي قبل عقد من اكمال الفن في العراق. واربعة عقود من اكماله في مصر فاين الدقة الموضوعية في البحث العلمي، ومن يصصف من؟!

وهل اضطرت الظروف للتخلي عن دياره واهله؟ وهل كان شاعر مادحاً أم راتياً؟ وهل كان شاعراً صاحب ثقافة..؟ وغيرها من الاسئلة التي توضع امام من اراد ان يحكم بانصاف وسداد على الشعر الاندلسي ومدى تعلقه باخيه المشرقي وتأثره به.

والرثاء من الاغراض التقليدية التي تولي المكان الديني اهمية خاصة في معانيها، اذ تتطلب صفات المرثي او المرثية الدينية ان يذكر معها اماكن العبادة والصلاة، تلك الاماكن التي كان يؤدي الفقيه فيها اوقات عبادته وتنسكه.

الاعمى التطيلي عند ما رثى امراة أسبغ عليها صفات التقوى والورع، وفي كل هذه الصفات لم ينس ان يذكر المكان الذي كانت تتعبد فيه هذه المرأة، وكم كان خالياً مقفراً عندما فقدها، وقد تلاوتها:

وكم أصاخ المصلئ لو شعرت به
وكم اتاه العذارئ يلتقطن به
إلى تلاتوك الآيات والسورا
من دمع اجفائك المرجان والدررا^(١)

(ويعبر السكان الديني عن الصلة بين السماء والارض، ومدى وعي الانسان باهنية هذه الصلات وعلاقتها بوجوده)^(٢) وهذا ما أدته معاني الابيات اللاحقة في قصيدة التطيلي نفسها، اذا كان من الطبيعي ان يتحول المكان الديني في الارض الى جنة وحرور، ونعيم الثواب الالهي الذي هو غاية كل انسان على الارض ومبتغاه يقول:

قد أزلفت جنة الفردوس وأطلعت
وبتن منتظرات والمدئ أمم
جاراتك الحور يستهدينك الأتسرا
وقل مايات مسروراً من انتظرا^(٣)

وهذه العلاقة بين الامكنة، وهذه الروابط والصلات بين الارض والسماء تتجلى بشكل اكثر وادق في ابيات ابن سهل، الذي خصص خاتمته في الرثاء، لمصير المرثي فاودعه الجنان ثم ذهب يحدثنا كيف نزل المرثي تلك الاماكن، وكيف استقبل بحفاوة، وتكريم في جنة فيها ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، هاكها في رثائه:

(١) ديوانه: ص ٤٥.

(٢) المكان في الشعر العراقي الحديث: ص ١٥٨.

(٣) ديوانه: ص ٤٦.

سِرُّ لِلجَنَانِ فَأُنْدَى، مَنْ وَلَدَانِهَا
رِضْوَانٌ مُنْتَظَرٌ قَدُومَكَ شَيْئَقُ
فَسَقَاكَ مِثْلُ مَدَامَعِي فِي فِضِيهَا
وَنَزَلَتْ فِي الْفَرْدُوسِ أَكْرَمَ مَنْزِلِ
وَسَقَاكَ كَوَثْرَةَ الزَّلَالِ وَذُلَّتْ
لَكَ مِنْ جِنَاهُ فِي النِّعِيمِ ثَمَارُ^(١)
مَاهِذِهِ الدُّنْيَا لِمِثْلِكَ دَارُ
وَلِخُورِهِ بِلِقَائِكَ اسْتَبْشَارُ
أَوْ مِثْلُ جُودِكَ وَأَبْلُ مَدَارُ
تَحْظِي بِهِ بِجِوَارِكَ الْإِبْرَارُ

وعند أبي حيان، ربما تتمثل هذه الاماكن بشكل اكثر فاعليه، وتأثيراً من أي شاعر اخر، وعلّ سائلا-ومن حقه- ان يسأل لم تتشكل الاماكن الدينية في الرثاء عند ابي حيان بكل تلك الفاعلية؟ وقوة ذلك التأثير؟ والاجابة على السؤال تكشف لنا عن عمق المكان الديني عند ابي حيان وفي غرض الرثاء. لانه خصص جل مرثيه لابنته نضار. وهي العالمة الزاهدة المتمسكة بمادئ الاخلاق القابضة على تعاليم دينها وشعائرها. يقول ابو حيان في واحدة من مرثيه ويذكر ان ابنته قد زارت الكعبة، وطافت بها، وقد كانت للثرثية مقامها الاخير، وان خاتمة حياتها كانت زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم- فكانت احسن خاتمة واطيب نهاية:

وبالكعبة الغراء طُفِتْ بِمَكَّةِ
وَجَاوَرْتِ أَيَّاماً بِهَا وَلِيَالِيَا
وَزَرْتِ رَسُولَ اللَّهِ أَفْضَلَ مِنْ مَشَى
فَكَانَ بَيْتَ اللَّهِ بِرُوكِ أَوْلَا
وللحجر المسودِ كَانَ التَّثَامِكِ
وَكَانَ كَثِيرًا بِالْمَقَامِ مَقَامِكِ
عَلَى الْأَرْضِ وَاحْتَلَّتْ هُنَاكَ خِيَامِكِ
وَزُورَةَ خَيْرِ الْخَلْقِ كَانَ اخْتِمَامِكِ^(٢)

لقد اكثر ابو حيان من ذكر الامكنة التي زارتها المرثية في تلك البقاع الطيبة وهي، (الكعبة، مكة، الحجر الاسود، المقام، بيت الله). وفي كل هذه الامكنة كان هناك بوح لمشاعر خلفتها ظروف الحياة العصبية التي عاشها ابو حيان. ولذا كان الهروب عفويا بالنسبة له في ذكر هذه الامكنة لكانه يتمنى ان تكون خاتمتها فيها او قريبة منها.

(١) ديوانه: ص ١٢٩.

(٢) ديوانه: ص ٣٧٨ وانظر: ص ٢٢٨، ص ٣٧٦، ص ٤٠٠، ص ٤٠٨، ص ٣٩٣، وكذلك: الذيل والتكملة:

٣٨٨/١/٥، الاطاحة: ٤٧٥/٢. نفاضة الجراب: ص ٣٨٢-٣٨٥، ديوان ابن زمرك: ص ٢٤٤.

الزهد والتصوف، ان الاسباب التي ادت الى ظهور الحجازيات والمديح النبوي، حسي الاسباب نفسها التي اسهمت في ظهور هذين الغرضين من الشعر في الاندلس. فالزهد ظهر فيها في عصر الامارة (١٣٨-٣٣٩)، كردّ على حياة اللهو والمجون، التي كانت تعيش فيها الامة الاندلسية ابان تلك الحقبة من السنين^(١).

واما التصوف؛ فربما لجأ اليه الناس - ومنهم الشعراء - بعد تكالب الظروف، وسقوط الدول والامارات، ومن هنا عد عصر الموحدين العصر الذهبي لظهور التصوف غرضاً قائماً بذاته في الاندلس^(٢).

ان (الزاهد ينصرف عن الملذات طمعا في الآخرة وبنات النعيم، اما الصوفي فان همه هو وقته الحاضر، وهدفه هو معرفة الله والاتصال الدائم به)^(٣)، ان هذين الغرضين ظهرتا في اوقات من حياة الامة اختلف فيها التوازن السياسي والديني والاجتماعي، ففر كثير من الناس الى الله - سبحانه وتعالى - داعين ان يزيل عنهم الالام والاحزان، وانه يرد الامن والامان الى نفوسهم ونفوس ذويهم^(٤).

ان دراستنا للمكان الديني، تتطلب منا ان نعالج هذين الغرضين بوصفهما غرضاً واحداً لان الغاية منهما هو التجافي عن الدنيا، عن الناس، وبالتالي عن سمات المكان المضطرب القلق الذي تعيشه تلك النفوس الحائرة في زمن ما او تمر به. وبعد هذا التجافي تتوجه تلك النفوس الى الله سبحانه - وتتوكل عليه، بنفس مطمئنة ثابتة محتسبة، وهاتان الغايتان تتمثلان في الغرضين، وبالتالي في الاشعار التي تنضوي تحتها، فلا حاجة بنا للفصل بينهما.

* للمزيد عن هذين الغرضين في المشرق . ينظر : التيار الاسلامي في شعر العصر العباسي الاول :

ص ١٦٩، الادب العربي في العصر العباسي ص ٥٤، الادب العربي في العصر الوسيط، ص ٩٨-١٠٦.

(١) ينظر : مدخل الى الادب الاندلسي: ص ١٢٨.

(٢) ينظر : الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ٢٧٩.

(٣) مدخل الى الادب الاندلسي: ص ١٢٨، وللدكتور حكمة الاوسي رأي يخالف هذا الرأي اذ عدّ شعر الزهد

في هذا العصر قد اتُخذ (كأجولة الصيد المراتب الاجتماعية، والتمتع تبعاً لذلك بامتيازات اقتصادية مغرية).

الادب الاندلسي في عهد الموحدين، ص ٢٠٥. وقد ردّ هذا الرأي د. احمد حاجم حين قال: (ومن الملاحظ ان

الدكتور الاوسي قد استند الى مواقف بعض شعراء الاندلس من الفقهاء الذي تمتعوا بامتيازات خاصة تجعلهم

في اعلى المراتب الاجتماعية في عصر المرابطين والموحدين، ونحن هذين معصرين د بخلوان من نقب،

زكّاد ابتعدوا عن مغريات الحياة ومراتبها الاجتماعية). القصص القرآني في الشعر الاندلسي : د. احمد

حاجم، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠١، ص ١٧.

(٤) ينظر : الادب العربي في العصر الوسيط: ص ٩٨.

كما ان دراستنا للمكان عموماً تتطلب منا ان نتجه نحو الشعراء الذي تشكل عند الظاهرة المكانية مركز ثقل في نصوصهم، ومدار اهتمامهم في رسم صورهم، والتعبير من خلال المكان- عن مشاعرهم الحقيقية دون مبالغة او تهويل. وراينا ان شعراء الطبيعة كابين خفاجة وغيره كانت لهم وقفات سياسية جريئة، وان شعراء الحرب كابين فركون كانت ملامح الامكنة الاجتماعية بادية واضحة في اشعارهم، وهنا نسير في دراستنا لمعرفة اثر غرض الزهد والتصوف على شعراء لم يعرفوا بهذه الاغراض، ولكنها شكلت اسلوباً مميزاً لطرح افكارهم وعواطفهم، وبذا نحن ونبعد -كليا- عن مكاننا الديني والتاريخي الشعراء الذين استقلوا بغرض الزهد والتصوف، كابين عربي المتصوف وصاحب المدرسة الصوفية في الاندلس والششتري (٦٥٦هـ)^(١)، لاننا لن نجد سمات حقيقية للمكان الديني في شعرهما، فاعلم ان هذا الشعر مختص بهذين الغرضين فهو يتحدث عن العشق الصوفي، وهجر الدنيا ولذاتها، وبذا قد يطول البحث ونحن نتحدث عن شعرهما وخصائصها بما لا طائل فيه. فضلا عن الاغراض التي طرقها المتصوفة في الاندلس، ولاسيما الشاعرين المذكورين، كالحب الالهي. او الزهد الجبري، والتصوف الروحي اغراض قديمة منزهة عن التقيد بزمان او بمكان، وان وجودها سابق على وجود النشأة الكونية^(٢).

لقد ظهرت بعض معاني الزهد، وسماته من ترك الدنيا ومجافاتها الى الاخرة فيني دار الاعمال الصالحة وفيها يلاقي المسلم ربه بما عمل فلا بد من التوبة، والندم على مافات والاقبال على مصائب الدهر ومتاعبه بروح مؤمنة صابرة، عند شعراء عصر المرابطين. وهذه الاشعار وان اوردت المكان في قصائدها الا انه كان مكاناً رمزياً من خلال استخدام التضاد بالدنيا والاخرة، والانشغال بوصف كل واحدة منها على حدة^(٣).

(١) للمزيد عن الموضوع ينظر: الادب الاندلس في عهد الموحيين: ص ٢١٦-٢٢٤، الشعر في عهد المرابطين والموحيين: ص ٢٨٤-٢٨٥، القصص القرآني في الشعر الاندلسي: ص ٨٧-٩٧، تاريخ الفكر الاندلسي: انخل بالثيا، تعريب: د. حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٣٧١-٣٨٦.

(٢) ينظر: النزعة الفلسفية في الشعر الاندلسي: محمد عبد الجبار الخزرجي (رسالة ماجستير) كلية الادب في الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٢، ص ١٢٨.

(٣) ينظر: ابن صارة -حياته وشعره- ص ٨١، قلاند العقيالان: ٤/٨٣٧-٨٣٨، ديوان ابن حنبلين: ص ٢٦٥-٢٦٦، ديوان ابن خفاجة: ص ٤٤.

هذا الفقيه ابو بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ)^(١) يرى في الدنيا انها ليست بدار قرار وان عباد الله الصالحين تجافوا عنها. وجعلوها موطناً لاعمالهم الصالحة، يقول:

إِنَّ اللَّهَ عِبَاداً فَطَنَّا
فَكَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا
جَعَلُوهَا لُجَّةً واتَّخَذُوا
طَلَقُوا الدنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَةَ
أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيِّ وَطَنًا
صَالِحِ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُفْنًا^(٢)

واما ابو الربيع سليمان بن عبد الله الموحد، فقد خصص في شعره باباً للزهد قال عنه: (وبه ختمت ليكون مكفراً لما ابتدأته، وشافعا فيما قدمته)^(٣) وعلّ هذا الامر يعود الى انه كان والياً في بجاية ثم مراكش^(٤)، وهذا الامر يجعله في غاية النعمة والسترف متمكناً من اسباب العيش الرغيد الهانئ، فقد يرى في قبور الموتى واثارهم واعظاً عمهاً لحياته المتنعمة المترفة. هذا من جهة ومن جهة اخرى؛ سعة ثقافته الادبية والدينية^(٥) التي تساعده كثيراً لصياغة قصائد الزهد واثارة معاني الوعظ والتقصيف من الحياة الدنيا فهي زائلة فانية، مهما طال نعيمها او دام ترفها، لنستمع لبعض زهدياته:

(١) ابو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن ايوب الفهري الطرطوشي. رحل الى المشرق ودخل بغداد والبصرة ثم سكن الشام مدة ودرس بها. مات في الاسكندرية سنة (٥٢٠هـ).

واثبت محققا الخريدة وهم العباد الاصفهانى الذي حننها بسنة (٥٦٠هـ) ينظر: الصلاة: ابن بشكوال (ت٥٧٨هـ) تحقيق: ابراهيم الابياري، دار الكتاب للمصري- القاهرة، الكتاب اللباني بسيرت، ط١، ١٩٨٩ (ترجمة ١٢٧٦/٣-٣٨٣) الخريدة: ١٦٥/٢؛ وفيات الاعيان: (ترجمة ٦٠٥)، ٢٦٢/٤-٢٦٤؛ المغرب: ٤٢٤/٢.

(٢) خريدة القصر وجريدة العصر: ١٦٥/٢، المغرب في حلى المغرب: ٤٢٤/٢.

(٣) ديوانه: ص ١٩.

(٤) ينظر: ديوانه: مقدمة المحققين: ص ٥، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: ابو العباس احمد بن احمد الفبريني (ت٧٠هـ) تحقيق: رابح بونلار، الجزائر. ١٩٧٠، ص ٣٣٩-٣٤٠. الوافي بالالاب العربي في المغرب الاقصى: ١٩٦/١.

(٥) ينظر: الامير الشاعر ابو الربيع الموحدى. د. عباس الجراري، الدار البيضاء- المغرب، ١٩٧٤، ص ١٤٣-١٤١.

يأنفسُ حسبك ما فرطتِ فأزجري
خافي الآلهة لَمَا قَدِمْتَ مِنْ زَلَلٍ
إِنَّ الْهُوَى قَلَمَا تُجِدِي هَوَاتِكُ
لشِدَّةِ مَا تَعْلَمِينَ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا
إِلَى مَ تَلْهَيْنَ عَن قَوْلِي مِغَالِطَةً
أَصْغِي إِلَيَّ فَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَحَدٍ
تُوبِي إِلَيَّ إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا

عَنْ الذُّنُوبِ فَإِنَّ الْقَبْرَ مَثْوَاكِ
وَاعْصِي هَوَاكِ فَإِنَّ اللَّهَ يَرْعَاكِ
وَهُوَ الَّذِي عَنِ سَبِيلِ الرَّشَدِ أَتْصَاكِ
مَا كَانَ أَحْرَاكِ بِالْأَجْدِي وَأَوْلَاكِ
وَتَوْقِنِينَ بَأْتِي غَيْرُ أَفَّاكِ؟!
أَلْقِي إِلَيْهِ صَرِيحَ النَّصِيحِ الْإِيَّكِ
وَأَسْعِي بِجَهْدِكِ فِي تَحْسِينِ عَقْبَاكِ^(١)

انه داعي النصيح، وتقديم الوعظ من انسان - قبل كل شئ- رأى تقلبات الحياة في الناس امامه في سرهم وجهرهم في صبرهم وجزعهم، في امنهم وخوفهم، ولذا لا يند من الخوف من عاقبة الامور، وغدر الدنيا التي تركها من مضى الى لقاء ربه:

تَرَكَ الْمَاضُونَ دَارَهُمْ
وَكَيْفَ نَمَضِي وَنَتْرُكُهَا
فَلْيَكُنْ مَنْ جَاءَ يَسْكُنُهَا

فَزَلْنَا عَلَيَّ خَطَرَ
لِلَّذِي يَكُنِّي عَلَيَّ الْأَمْرَ
بَعْدَنَا مِنْهَا عَلَيَّ حَذَرَ^(١)

ومن الشعراء الذين نقف في شعرهم على معاني الزهد. وترك الدنيا وملذاتها ابو حيان، وهذه المعاني واضحة تمام الوضوح، فما الذي يجعل نحويا فقهيا يزهد في حياته، والمفروض انها حياة طيبة بالايامن عامرة بالعلم؟ وما الذي يجعل اشعاره باكية شاكية كلما تقدم به العمر، والمفروض انها تكون سعيدة مفرحة وقد صدرت عن حياة عرفت مخافة الله ورعت امانته حق الرعاية؟؟ ان نظرة متأمله في زهديات ابي حيان تحلنا نردها الى اسباب كثيرة منها:

١. الكهولة والشيخوخة. لقد عاش ابو حيان مدة طويلة في حياته منذ سنة (٦٥٤هـ) الى وفاته (٧٤٥هـ)، وهي حياة تكشف عن تجرية، وتمر بمعاناة لا يمكن ان يصورها الا الشعر، ولا تفيض بها الا ابياته الحزينة الموعظة.

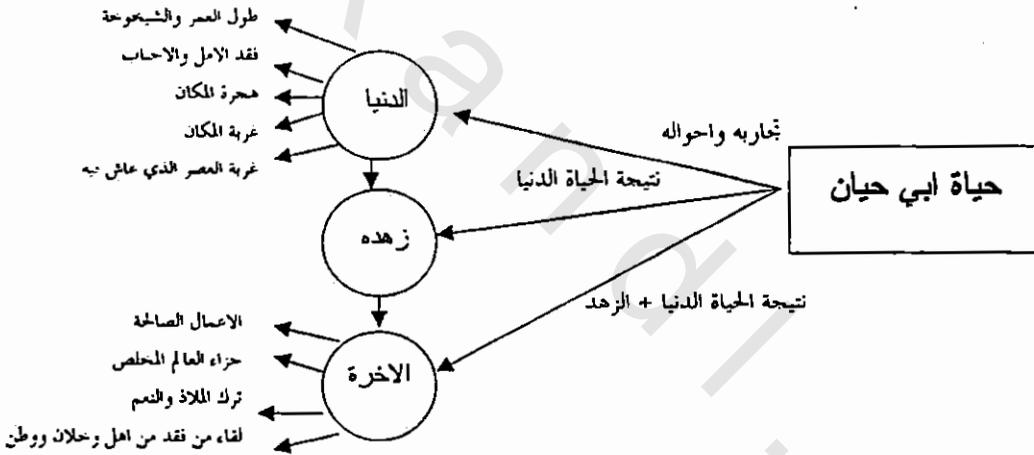
(١) ديوانه : ص ١٥٢.

(٢) م. ن. : ص ١٥٣.

٢. فقد الاهل والوطن: لاسيما انه غادر الاندلس مبكرا وهو لا يزال صبيا في سنة (٦٧٨ او ٦٧٩هـ) فيقبت عوامل صباه وطفولته، ذكرى حزينة امام عينيه طول حياته، ومن ثم سقوط بعض مدن هذا الوطن، وبكاء اهله عليه وهو بعيد عنهم ما كان ليكشف حائلا بين ابي حيان وبين هجر الدنيا وترك مناعها، وغير ذلك من معاني الزهد.

٣. رحلاته. فقد رحل ابو حيان الى الحبشة وبعض الاقطار الاعجمية، وزار الشام ومكة المكرمة ثم استقرت به الحال في مصر، التي لم يأمن فيها جوار اهلها، ولم يرفل بحسن الإقامة معهم، وهذا امر مهم ترك الشاعر في شكوى، وخلفت له بلوى اكبر من بلواه السابقة.

٤. شيوع التصوف وازدهاره في عصره وقد ادت مواقفه الخاصة مع بعض ائمة المتصوفة الى ان يرميهم بالاحاد والزندقة والنجاسة^(١) وهو امر يجلب الحسرة ويورث الندم على ما شاع من خطأ وما كثر من جهل عم وطم ومن هنا ربما لا يكون الا انه - عز وجل - مهريا، والا لجواره- سبحانه - مقرا بعدما عظمت الذنوب وكثر البلاء.



(مخطط تشكيلي يوضح مسار العلاقة التي مر بها ابو حيان في حياته مع زهده واثرها -الحياة والزهد- على مصيره الاخروي)

(١) ينظر: ديوانه: مقدمة المحققين؛ ص ٨١.

وإذا ماجئنا الى شعر ابي حيان ومعانيه الزهدية، وجدناه صفحة ناصعة بانين شاعر حكيم، وشكوى انسان مرير. يقول وقد اذنته الحياة والعلم تجاربا لسؤ الايام وتقبلها بين راحة وحزن، وانه لاينال احدا راحة مهما كان صاحب علم، وخبرة في امور الحياة وتصرفات الدهر:

لقد زادني بالناس علماً تجاربي ومن جرّب الايام مثلي تعلمنا
وايني وتلامي من الناس راحةً لكالمبتغي وسط الجحيم تنعمنا
سأزهد حتى لأرى لي صاحباً وأنجد حتى لا الأقي متّهما^(١)

ولم يكتف بتجارب الحياة الخؤون، وایامها البائسة ان تكون له عظة واعتبار، وانما ذهب الى اكثر من ذلك عندما يتذكر القبر المظلمة، وان هذه الظلمة جعلته زاهداً في المال والمرتبة الدينية او الاجتماعية او السياسية، مع العلم انه عليها قادر، وبادارة امرها بصير:

تذكرني للبي في قعر مظلمة أضارني زاهداً في المال والرتب
إني أسر بحال سوف أسلبها عما قريب وأبقى رمة الترب^(٢)

لقد اوضحنا في كلامنا السابق، وفي مخططنا الذي رسمنا مدى ارتباط زهد ابي حيان بالآخرة، بعدما ينس من الدنيا واهلها، لكونها لا تحافظ على مال او ولد او جاه، وربما لا تعطي لكل ذي حق حقه وان قصيدته الآتية، ما يدل دلالة حميمة على تبيان اواصر الارتباط وكشف معاني الدارين- الحياة والآخرة- وفي معانيها ما يعظ. ويذكر ويسلي ويصبر لابي حيان ولغيره بقول:

(١) من شعر ابي حيان الاندلسي: تحقيق: د. احمد مطلوب، د. خديجة الحديثي، مطبعة العاني- بغداد، ١٩٦٩، ص ١٢٦.

(٢) ديوانه: ص ١١١، من شعر ابي حيان: ص ٥٠-٥١ الرمة- بالكسر- العظام البالية.

يَوْمَنَا يَشْبَهُ أُمْسٍ
 إِنَّ هَذَا لِحَيَاةٍ
 فَمَنْ يَنْقُلُ شَخْصاً
 لِحَيَاتٍ غَالِيَاتٍ
 مَا تَلْذُ الْعَيْنُ فِيهَا
 مَعَ وَلَدَانِ وَحُورٍ
 لَمْ يَكُنْ لِهِنَّ طَمَعٌ
 عُرْبٌ أَبْكَارُ حَسَنٍ
 نَوْرُهُنَّ الدَّهْرُ بِبَاقٍ
 هُنَّ مِنْ إِجَادِ رَبِّي

مِثْلَمَا نُصْبِحُ نُمْسِي
 مَا تَسَاوِي عَشْرَ فُلْسٍ
 أَمْساً لِدَارِ قُدْسٍ
 عَرِيَتْ مِنْ كُلِّ بَوْسٍ
 وَأَشْتَهَتْ كُنْزَ نَفْسٍ
 قِاصِرَاتِ الطَّرْفِ نَفْسٍ
 لَا يَجُوزَنَّ وَلَا إِنْسٍ
 أَنْسٍ لَيْسَتْ بِشَمْسٍ
 لَا كِبَرٍ وَلَا شَمْسٍ
 أَنْشَأَتْ مِنْ غَيْرِ جَنَسٍ^(١)

انها علاقة ابدية بين حياة ابي حيان وزهده، وما اعده الله للمتقين . و ابو حيان منى نفسه بهذا النعيم، فرأى في الزهد هروبا من حياته الشائقة، ورأى في الاخرة نعيما قريبا، ومكانا ينسيه . وما كان في الدنيا فراح يتمثله ويصف نعيمه، راجيا ان يكون له جزاء وان ينعم به عاقبة.

اما عن اماكن الديانة النصرانية؛ فقد تناثرت هنا وهناك في قصائد الشعراء فمنها ما تمازج مع ذكر الديانة العربية^(٢) فمنها ما ذكر لوحده ليدل على شكوى او زهد او مدح او غزل، وكان الدير-المكان - أكثر ما ذكر من هذه الامكنة^(٣)، والدير يختلف

(١) ديوانه: ص ٢٢٥-٢٢٦ . على الرغم من ان ابن الخطيب مرّ بالتجارب الحياتية التي مرّ بها ابو حيان كالغربة والفتن التي لودت الى قتله وفتده اهله- ولده ووالداه في الحرب- إلا انني لم اكتشف معاني زهد حقيقية في شعره، وعلى هذا الامر عائد الى صفاته التي قيل عنها انه كان: (معتداً بنفسه، شموخاً، بارزاً، في جل قصائده...) مقدمة محقق ديوانه: ص ١٣١، وهذه صفات لاتدع لشاعر ان يتنازل عنها فسي اخريات حياته، مهما كانت الظروف، وارجو ان اكون مخطئاً.

(٢) ينظر: ديوان ابن خفاجة: ص ١٥٥.

(٣) ينظر: ديوان الحكيم: ص ١٠٣-١٠٤، ديوان ابي الحسن الششتري: تحقيق: د. سامي عيسى النشار، مطبعة المعارف-الاسكندرية، ط١، ١٩٦٠، ص ٤٢، ديوان ابن الخطيب: ص ٥١٣-٥١٤، الاطاحة:

باختلاف مواضعه؛ وهو محصن بسور مكين شاهق^(١)، كما يشترط (ان يكون فيه كنيسة يصلي فيها الديرانيون. كما يشترط فيه ان يحتوي على صوامع يستوعب من فيه من رهبان)^(٢).

وعن دلالات المكان الديني؛ فكانت كثيرة ومتنوعة فمنها ما يدل على الفرح والابتهاج كروية هلال الفطر^(٣)، او الاحتفال بعيدي الفطر والاضحى^(٤) أو حلول شهر رمضان المبارك على المسلمين^(٥) بما يحمله من طاعة وتقوى. ومن دلالات ما يدل على العظمة كالقسم ببيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبكعبته المشرفة^(٦)، ومن الدلالات ما يحمل في طياته رزقاً وأملاً في حياة هائلة، لاسيما اذا انيطت بالشاعر وظيفة دينية^(٧)، فراه يذكرها في شعره مثنياً ومعظماً ويكي لفقدها اذا سلبت منه لا حول ولا قوة.

ومن دلالة المكان الديني الغربية، وهذه الغربية نتجت حينما احتل النصارى الاسبان مساجد المسلمين وجوامعهم وقلبوها كنائس فضاقت بهم الارض بما رحبت، رولوا عن مدنهم باكين متأسفين على جور الزمان. وظلم الاعداء، وفي النصوص التالية ما يكفينا العظة ويثير فينا الحزن، ويرد على من ادعى ان الاندلس شهدت جوراً من التسامح الديني... لقد شاعت هذه الدلالة في القصائد الطوال، وفي القصائد التي اخذت صيتها مسموعا، واشتهرت شهرة كبيرة في الاندلس وغيرها، ففي سينية ابن البار الذائعة الشهيرة التي استنجد بها بالامير ابي زكرياء الحفصي والتي مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله اندلسا إن السبيل إلى منجياتها درسنا^(٨)

(١) ينظر: الديارات: ابو الحسن علي بن محمد المعروف بالشابستي (ت ٢٨٨هـ): تحقيق: كوركيس عواد، بغداد. ١٩٦٦. ص ٤٩.

(٢) م. ن: ص ٤٩.

(٣) ينظر: ديوان ابن خاتمة: ص ١١٦.

(٤) ينظر: ديوان ابن فركون: ص ١٩٠-١٩٢، ص ١٩٣-١٩٤، ص ١٩٥-١٩٦، ص ١٩٧، ص ١٩٨-٢٠٠، ص ٢٠١-٢٠٣، ص ٢٠٤-٢٠٦، ص ٢٠٧-٢١٠.

(٥) ينظر: ديوان ابي حيان: ص ١١٤.

(٦) ينظر: م. ن: ص ٢٢٥.

(٧) ينظر: ديوان القيسي: ص ٢٤٣، ص ٢٧٧، البسطي اخر شعراء الاندلس: ص ١٨٧، ص ١٩٤، ص ١٩٥.

(٨) ديوانه: ص ٣٩٥.

يقول فيها عن مأساة المسلمين في اسلامهم، واماكن عبادتهم وكيف تحولت الى بيع وكنائس وكيف تبدل نداء الصلاة فيها الى اجراس الكنائس، وذات عبادتهم:

يا للمساجد عادت للعدي بيعةً وللنداء غناءً. اثناءها جرساً لهفي عليها إلى استرجاع فاتها مدارساً للمثالي أصبحت دُرساً^(١)

وتبلغ هذه الغربة مبلغاً كبيراً عند الرندي، ففيها صراخ عام، ووفير شامل، فقد رثى الشاعر الاندلس جميعاً، مدنها، اناسها، اسلامها- تقوى وصلادها وخوفاً من الله- وشمل هذا الاسلام العبادات واماكنها وما حل بها، وكيف تبدلت وتغيرت فحس المسلمون بغربتهم وفشلهم في دفاعهم عن ارضهم... ولكن لات ساعة مندم:

تبكي الحنيفة البيضاء من أسفٍ كما بكى لفراق الألف هيمان
على ديار من الأسلام خاليةً قد اسلمت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
ياغافلاً وله في الدهر موعظة إن كنت في سنة فالدهر يقضان^(١)

وإذا ما انتقلنا الى القرن التاسع الهجري وهو آخر قرن نقف عنده في دراستنا، وجدنا القلوب قد تغيرت والنفوس تبدلت، فلم يعد القاضي هو القاضي، ولم يكن الفقيه هو الفقيه. لقد اصاب الهلع والجزع والخوف على المناصب تلك القلوب والنفوس وهي في مهامها الخطرة، غيرت الاحكام وسادت الرشوة وعم الضعف والانتحال المؤسسات الاجتماعية والدينية مثلما عمت في المؤسسات السياسية والادارية والعسكرية... كل هذه الاحوال يخبرنا عنها بصورة دقيقة ومن قرب شاعرنا القيسي البسطي لانه كان قاضياً وترك هذه المهمة، ولانه رأى بعينه ما ساد من طمع في المناصب وخوف من التقصير التي تعد من الاسباب الرئيسة لسقوط مملكة غرناطة في حقب الاندلس الاخيرة.

ولم تقف اشعار القيسي عند المساجد والجوامع، وكيف حل بها الفساد، وانما هاجم الخطباء والقضاة والفقهاء.^(٢) لانهم عطّلوا شريعة الله، وتركوا صريح الكتاب ومالوا

(١) ديوانه: ص ٣٩٦.

(٢) شعر الرندي: ص ٧٣٦.

(٣) ينظر: ديوانه: ص ٢٢٤، ص ٢٤٣، البسطي آخر شعراء الاندلس: ص ١٩١-٢٠٥.

إلى الهوى في احكامهم يحرصون في ذلك على ارضاء الحكام، وبخافون على انفسهم ومناصبهم.

واما عن الاماكن الدينية والمؤسسات التي كانت تقام على الاسس الدينية كالقضاء وامور الفقه... فان القيسي انتبه الى اهمال الدين وضياع مؤسساته عقب الحوادث والكوارث التي شهدها المسلمون في ساحات الحرب، فهو بعد كارثة ارشودنة (سنة ٨٦٧هـ)، اخذ يفكر (في مصير الاندلس المظلم وينحو منحى الشاعر الزاهد ابن العسال وغيره، بل: انه اربى على من سبقه بتحليل الاحوال وذكر الاسباب ومنها اختلاف كلمة المسلمين وتنازع رؤوسانهم على الملك، وتهافتهم على اكل اموال الناس بالباطل واتعدام العدل الذي هو اساس العمران، واهمال الدين ومؤسساته)^(١) يقول عن الامكنة الدينية وما حدث فيها:

فَوَا اسْفَاً لِلدِّينِ اُهْمَلْ حَقُّهُ
وَسُنَّتْ مَبَانِيهِ وَنَكَّتْ سَفَاهَةُ
أَفِيقُوا أَفِيقُوا وَأَهْجُرُوا النَّوْمَ إِنَّهُ
وَمَنْ كَانَ فِيمَا قَدْ مَضَى الدَّمْعَ بَاكِيَاً
وَقَوْلٍ مِنْهُ الْمَسْتَرْ بِالْكَشْفِ وَالسَّهْتِكِ
فَسَاعَتْ بِمَا تَبْدِي مِنْ الْهَدَى وَالذِّكْرِ
حَدِيثٌ صَحِيحٌ مَا أَقُولُ وَمَا أَحْكِي
فَفَرَضَ عَلَيْهِ بَاقِي الدَّمِ أَنْ يَبْكِي^(٢)

والذي يبدو ان احدا لم يستجب لنداء القيسي ولم ينصت مسلم لندائه، فراح الجميع في سنة عميقة لم توقظهم منها الا اوامر المحتلين، وزجر الغاصبين نتيجة الضعف والانحلال والاهمال. يقول في المساجد التي اشرف عليها الاحباس تعطى الاراق وتوزع المؤن على القائميين عليها، ومن يدخل في عطاياها من مقرئين ومدرسين وفنهاء وقضاة:

• ابن العسال (ت ٤٨٧هـ) الشاعر المعروف صاحب الابيات المشهورة في قرطبة :
يا أهل أندلس حثوا مطيكم (الابيات)، راجع عنه الروض المعطار: ص ٩٠، نوح الطيب:
٤٤٧/٤. اما عن زهد القيسي فقد سبقنا فيه القول د. قاسم الحسيني: (كاز- زهد- نوعاً من محاسبة النفس
في وقت كثر فيه الاحساس يدنو الموت...) الشعر الاندلسي في القرن التاسع الهجري: ص ٢٤٧، ولذا ابتعدنا
عن ذكره في كلامنا عن الزهد.
(١) البسطي اخر شعراء الاندلس: ص ١٧٣.
(٢) ديوانه: ص ٣٦٤، البسطي اخر شعراء الاندلس: ص ١٧٤-١٧٥.

يا أهل بسطة ما لكم في غفلة
ومساجد الله التي في مصركم
عمت وأمن من حلول الباس
ضاعت لغفلة ناظر الأقباس^(١)

كما خاطب الرئيس القاضي الماجد ابا عمرو بن منظور^(٢) في شان الاحباس، وهو يؤكد على اهمال المساجد وضياعها:

وللمساجد يسري أمر ضيعتها
وقد اتتك بما تلقاه شاكية
ومشرفاً وشهيداً انظرن لها
لازال جانب ذلك المجد مرتفعاً
إن حقها دون احباس البلاد نسي
مع أنها وصفت بالعي والخرس
وناظرأ طاهر الأعراض من دنس
مبلغ القصر منه كل ملتمس^(٣)

وتطالعنا ونحن نتحدث عن الامكنة الدينية، وسقوطها وغربتها على المسلمين الذين الفوا ارتيادها واداء مناسكهم بها تلك القصيدة الرائعة التي قيلت في رثاء الاندلس عموماً بعدما سقطت كل مدنها، وجميع بلدانها وفيها يعرج الشاعر على المباني التي دامت والصوامع التي ازبلت والمساجد التي تغيرت بتأسف وتحس فهو عندما يذكر سقوط ردة يذكر تفرق المسلمين فيها، وكيف تسلم الصليب امرها ودقت نواقيسهم نبيها، يقول:

(١) ديوانه، ص ٢١٩، البسطي آخر شعراء الاندلس: ص ٢٠٤.
(٢) ابو عمر بن منظور القيسي (ت ٨٨٨هـ او ٨٨٩هـ)، قاضي الجماعة وامام جليل. ينظر: ازهار الرياض: ٢٢٣/٣.

(٣) ديوانه: ص ٢٧٣، البسطي آخر شعراء الاندلس: ص ٢٠٥.
• تشير معظم المصادر ان القصيدة لشاعر مجهول: وانظر: دراسات اندلسية في الفكر والفلسفة والتاريخ والادب: د. الطاهر احمد مكي، دار المعارف - مصر، ١٩٨٠، ص ٣٦٢، الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه: ص ٥٥٥، والشعر الاندلسي في القرن التاسع الهجري: ص ٢٠٢، واما نسبتها لابن خاتمة (ينظر: احتفالات الموالد النبوية: ص ٣٥) فهو غلط تاريخي لان الشاعر توفي (٧٧٠) ولم يشهد سقوط الاندلس.

وفسَّقَ شسَلُ المؤمنِينَ لهيبتها
تسلَّمها حزبُ الصليبِ وقادها
وقد ذهبتْ اديانُها ونفوسُها
فبادَ بها الأسلامُ حتَّى تقطَّعتْ
واصبحتْ الصلبانُ قد عبدتْ بها
لقرعِ النواقيسِ أعتلى بمنارها
وقطعَ من أرحامهم زمهريرها
وكانتْ شروداً لايقادُ نفوزها
وقد دثرتْ تحتَ السباعِ دثورها
مناسبتها واستأصل الحق زورها
تماثلها دونَ الاعلِه وصورها
كرانه اصواتِ يروغ صريرها^(١)

والشاعر فيها تأثر بمواطن من قصيدة الرندي الذائعة التي مر بنا الاستشهاد بها كقوله:
فوا حسرتا كم من مساجدٍ حولتْ
وواسفأكم من صوامعٍ أوحشتْ
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى
واياتها تشكو الفراقِ وسورها^(٢)
وكانتْ إلى البيتِ الحرامِ شطورها
وقد كانَ معتادُ الأذانِ يزورها

انه صراخ وبكاء ونحيب، انها دموع وشكوى، انه بلاء عم الامة الاندلسية في مساحي حياتها المختلفة من دين وفكر وسياسة.

المكان الحضري.

لايعرف المرء من أي الابواب يدخل ليتحدث عن حضارة الاندلس؟! ولا يدري كيف يسخر عنواناتها- وان كثرت- لتغطي هذا الموضوع؟!
وعلى ما يزيد من هذه الخيرة، ويثير تلك التساؤلات المختلفة، هو المجي بهكذا حضارة، وهاته المنجزات الابداعية المبتكرة التي شملت كل مظاهر الحياة في ذلك البلد الجميل، من قبل اناس دخلوه باسم الدين الاسلامي الحنيف، وحملوا تعاليمه السمحة، وكان اهم عمل- عندهم- هو ان تشمل رحمة الاسلام الارض، وان ينشر العدل ويعم الخير، ولم يكونوا يعولون على سمات الحضارة واطهار الوانها الا ما يرتبط بدينهم، ويتصل بدعوتهم.

(١) قصيدة رائعة في رثاء الاندلس لشاعر أندلسي مجهول: عبد الرحمن حجي، مجلة الناهل المدينية،

ع ٢٨٤، ١٩٨٣، ص ٣٤٣-٣٤٤.

(٢) م. ن: ص ٣٤٤.

لقد اتسعت مظاهر الحضارة والعمران في الأندلس لتشمل جميع الفئات الاجتماعية، وتحيط بكل أسباب الترف والتنعيم التي توفر للفرد حياة متمعة مطمئنة الى مدة طويلة من تاريخ حكم العرب والمسلمين في تلك الديار، ولكن بوادر الانحلال والضعف لاسيما بعد عصر الموحدين، ومن ثم الوقوع في دائرة الحرب والمواجهة مع الاعداء في عصر بني الاحمر، جعل الامة في محن، وازال عنها نعيمها وترفيها السذي شهدهت من قبل. وعلى اية حال؛ ان كل اسباب الحضارة، وقيام عوامل التمدن، وطغيان الحياة الرخية على الأندلس واهلها عائد الى المكان، الى بيئتهم الباسقة التي منحبت جمالا اهلها بديعا، وفي ذلك يقول المقرئ: (خصّ الله بلاد الأندلس من الربيع وغسق السقيا ولذاعة الاقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الانية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وايضا ارض السوان الانسان، ونبل الازهان، وقبول الصنائع، وشهامة الطبائع، ونفوذ الادراك، واحكام التمدن، والاعتماد بما حرمة الكثير من الاقطار مما سواها)^(١)

ان الاستطراد في الحديث عن حضارة الأندلس وما انجزه المسلمون هناك سيطول ويطول، وان ما يهنا هنا هو الوقوف على المكان الحضري واتماطه وابتكاراته في الشعر الأندلسي، ومدى تصوير هذا الاخير لعوامل النهضة العمرانية، وملامح الهندسة البنائية التي عدت شاهدا مكانيا ورمزا تاريخيا على ايداع وابتكار بقايا خالدين الى يومنا هذا.

وسنحاول الامكنة الحضرية التي عثرنا عليها في الشعر الأندلسي. والاصناف التي كونت اسس الجوانب المعمارية والهندسية في تلك البلاد عن طريق المحاور الآتية:

١- وصف المباني والجوانب المعمارية العامة (القصور، والقلاع، والمنارات).
٢- الحمامات .

٣- اماكن هندسية عامة.

٤- اماكن هندسية مبتكرة.

٥- اماكن الطبيعة الحضرية (المتنزهات والمتفرجات).

لا يخفى على أحد أهمية القصور السلطانية في جلب اهتمام الشعراء والادباء في كل زمان ومكان؛ فهي من جهة، ترتبط بالمدوح او الملك او الامير الذي انشأها وهو في

(١) نفع الطيب: ١٢٦/١، وبنظر: الشعر والبيئة في الأندلس: د. ميشال عساصي، بيروت، ط ١، ١٩٧٠، ص ٩.

الغالب ممدوح هؤلاء الشعراء والادباء. ومن جهة اخرى، هي مرتبطة بتاريخ الامة وحاضرها وزهوها التي يعيش في كنفها الشاعر، ويحيا تحت رعايتها الاديب. وقصور الاندلس عامرة زاهية في عصورها كافة وعلى عهود ملوكها جميعا.

هذا الوزير الكاتب ابو محمد بن عبد الغفور (من شعراء عصر المرابطين)^(١)، يمدح الامير يحيى بن سير^(٢) ووالي اشبيلية حين ارتحل الى قصره بها، وهذا المدح متصل بالمكان- قصر الممدوح- وما يتعلق به لما بينهما- الممدوح والقصر - من وشائج لاتخفى من عظمة مكان الممدوح، واهمية هذا المكان في جعله في المراقبة العليا، وانه صاحب القدح المعلى في كل شيء، وعن اية امر، يقول:

هَذَا مَحَلُّكَ يَا أَمِيرٌ فَأَعْمَرَهُ مَتَّصِلَ السَّرُورِ
قَصْرٌ تَضَاءَلَتْ الْقُصُورُ زُ لُهُودَانَتْ بِالقُصُورِ
فَأَسْحَبَ بِهِ ذَيْلَ الْعَلَا إِ مَدَى اللَّيَالِي وَالْأَهْوُورِ
وَأَنْعَمَ بِأَحْرَارِ الْأُمَا نِي فِي الْوُفُورِ وَفِي الظُّهُورِ^(٣)

ولم ينس الحكيم في مدحه للحسن بن علي بن يحيى الصنباجي^(٤)، ان يذكر قصر الممدوح، وان يسمه بالكبر بحيث ان الدنيا بسعتها وكبرها ضاقت وقصرت عن احتواء مكانه، او معرفة قطره بقول: -

إِذَا سَقَى اللَّهُ أَرْضاً صَوْبَ غَادِيَةِ فليسق قصرك صوبَ الرّاحِ مَاشِرِبَا
قَصْرٌ تَقَاصَرَتِ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا عَنْهُ وَضَاقَ مِنَ الْأَقْطَارِ مَارْحِبَا^(٥)

(١) هو ابو محمد بن عبد الغفور بن ذي الوزارتين ابي القاسم محمد بن عبد الغفور صاحب المعتمد. وهو محمد كاتب الامير علي بن يوسف بن تاشفين. ينظر: فلاندي العقيان: ٤٦٦/٢-٤٦٧، الخريدة، ٢٠/٢٥، المغرب: ٢٤١/١.

(٢) يحيى بن سير بن ابي بكر، ولي اشبيلية بعد ابيه عام ٥٠٧هـ، وعزل عام ٥٠٨هـ، فكانت ولايته سنة واحدة. ينظر: البيان المغرب: ١٠٦/٤.

(٣) فلاندي العقيان: ٤٧٣/٢.

(٤) ولي المهديّة سنة (٥١٥هـ) وخسر ملائكة (٥٤٣هـ) حين استولت جيوش روجار الصقلي على المهديّة. ينظر: الخريدة: ١/١١٩٥ اعمال الاعلام: ص ٧٧-٨٤.

(٥) ديوانه: ص ٥٢.

وفي عصر الموحدين ، ربما نعود الى قصيدة الرصافي التي استشهدنا بها في مواقع مختلفة من بحثنا هذا ، نستشهد بها على مكان عبد المؤمن بجبل الفتح وابتائه القصور العظيمة اثناء نزوله بهذا الجبل، وهذا الامر لم يكن ليفوت على الرصافي فرصة مدحه بهذا البناء العظيم، يقول:

يا دارُ دارُ أميرِ المؤمنينِ بسفـ
حِ الطودِ طودِ الهدى بُوركتِ في الدورِ
ذاتِ العمادين من عزٍّ ومملكةٍ
على الاساسين من قُدسٍ وتطهيرِ
ماكانَ باتيكِ بالواني الكرامةِ عن
قصرِ علىِ مجمعِ البحرينِ مقصُورِ
مواظي من بنيِّ طالٍ ما وصلتِ
فيها الخطبى بينَ تسبيحٍ وتكبيرِ^(١)

أما في شعر ابي جعفر بن سعيد ، وهو شاعر انعكست اثار الحضارة في عصره انعكاسا واسعا، يقول في قصر من قصور الخليفة عبد المؤمن وقد رحل عنه:

قصرَ الخلافةِ لا اُخليتَ من كرمِ
وإنْ خلوتَ من الأعدادِ والعددي
جزنا عليه فلم تنقصْ مهابتُهُ
والغيلُ يخلو وتبقى هيبَةُ الأسدِ^(٢)

إن كل نص من النصوص السابقة ماكان ليقال حزافة، او ليمدح او ليصف... فحسب، بل؛ حمل كل نص دلالات اخرى وقف خلفها الشاعر وهو يمدح او يصف. وان الالفاظ او الاوزان، او الكلمات التي جاءت في كل نص جمعت تلك الدلالات وعبرت عن عواطف فنية واحاسيس كامنة، بزغت الينا عبر هذه الوثيقة- الشعر - وربما سائل يسأل- وذلك من حقه- كيف اخنفت عواطف الشاعر؟ وكمنت احاسيسه خلف نصوص مدحية غايتها ابراز هيبه الممدوح وعظمته عن طريق افعاله، لاسيما اماكن خلافته وقصورها؟؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال نقول:

إن النص الاول صدر عن اديب كاتب وزير، وزر ابوه للمعتمد. ولذا رأى في ممدوحه يحيى ماراه والده في المعتمد، فاراد ان يعود الممدوح الى اشبيلية وقصرها وهو سابقا قصر المعتمد حتى لا تتكرر مأساة اشبيلية ثانية، ويظل يبكي اهلها، مثلما

(١) ديوانه: ص ٨٨-٨٩.

(٢) شعره: ص ١٣١.

حدث في فاجعة المعتمد وشكواه، ولذا كانت الفاظ الشاعر واضحة فيمثل قوله: (هذا محلك، اعمره، احرز المعالي، ونل الاماني...).

وفي النص الثاني: كان الحكيم حكيماً عندما قصر المكان في النص على قصر الممدوح، لانه عانى الغربة والمرار وهذا ما دفعه للهجرة بعدها كما نعلم، ومن هنا كانت سعة القصر ورحابته امام تقصير الدنيا وضيقها مما يوحي بانها ما عادت تحوي الشاعر او توليه اهتماما، فاراد عن طريق السكان ان بخير الممدوح ان قصره الشاسع الواسع، للاسف لم يستطع ولن يستطع ان يحوي شاعرا ضعيفا تقاذفت به الايام، واحتكته الظروف.

أما النص الثالث؛ فصدر عن شاعر فنان ومصور بارع، فهو من حيث فنية القصيدة، واحكام بنائها لايد ان يذكر افعال الممدوح ، ومايميزه عن غيره من الناس ، وعل هذه المباني تقف في عين الشاعر اول ما تقف لهاتيك الافعال والامتيازات. ومن ثم اراد ان يقر ان هذا القصر وهذه الديار هي مركز العظمة وان الاتين من بعيد لايد ان يروا تلك الديار، وهي تحكي صموداً وتروي بطولة، وهي -القصر والمباني- باقية تاريخيا وحضارة لذلك المنشأ في حين ان النص الاخير؛ حكى اغتراباً مريراً من شاعر اغترب في وزارته ووظيفته... وعشقه لمحبيبته، وفي فشلته ان تكون له زوجة وريفة حياة مع العلم انها ظلت له عاشقة ، واياه طالبة... فليس من الغريب ان يدل المكان على صاحبه وان يحكي تجاربه، فيبقى مكان الاسد رمزا للهيبه والقوة حتى ولو خلا منه. وهذا ما احسن ابو جعفر في التعبير عنه.

هذي هي وظيفة الشعر في نقل المشاعر والاحاسيس العميقة، والتعبير عن حفاينا النفس الانسانية- اينما كانت وهذا هو المكان؛ انه ترجمة فعلية لتلك المشاعر والاحاسيس، وكشف معنوي لتلك الخفايا بكل صغائرهما، وعظائهما.

وعند ابن الأبار تختلف الرؤى التشكيلية للنص الشعري، فقصر المراة التي تغزل بها لم يحدد، ولم يوصف الا بمقدار ما يظهر تنعمها وترفها، ورخاء عيشها، وما يظهر عفة ابن الابار وزهده في نيل المحارم او هنك ستر العفاف والحشمة، فما هي الا زورة عابرة، وهيام مشروع من:

يا ريسمَ قَصْرٍ بِهِ أَهِيْمُ الصبِيحَ مَا لَمْ تَلْحَ بِهِمُ
سَرْتُ وَلِمَا يَسِرُّ غَرَامِي لَا غُرُوْ أَنْ يُلْزَمَ الْغَرِيْمُ
يَا حَبِيْذَا مَنْزِلُ خَصِيْبٍ السَّوِيْ بِهِ مَنْزِلُ خَصِيْمٍ
طَابَتْ بَارِجَاتُهُ الْأَمَانِي كَانَتْهُ الرُّكْنُ وَالْحَطِيْمُ^(١)

وبلا منازع، ان مظاهر الحضارة والعمران منتشرة في النص، وان هذه المحبوبة سكنت مكاناً منعماً فزادت تعلق الشاعر وابقت حيرته على عادة اهل العشق وحكايات اصحاب الغرام.

إذا ما وصلنا الى بني الاحمر لاستكشاف اعمالهم الحضريّة واتارهم العمرانيّة وجدناها افعالاً واعمالاً تستحق الثناء والعرفان. لقد أفاض الباحثون الفضلاء^(٢) في الحديث عن موقع غرناطة واثرها الحضري وكيف بلغت من الاتساع واصبحت اغنى مناطق الاندلس عندما بدأت المدن الاندلسية تتساقط بيد الاسبان، وهذه الاقاضيّة في الحديث شملت قصور تلك المدينة ومنتزهاتها وحماماتها ومعالمها الاثرية معتمدين في كل هذه الاحاديث على ما بقي من اثار وعمران وفكر، حكى تلك الحضارة، وقصّ علينا اخبارها، ويعد الشعر الاندلسي الذي ظهر في هذه المدة اهم تلك الوثائق التاريخيّة الحضريّة التي بقيت شاهد متكلماً على طول الزمن وتبدله وتغييره.

ابن الجياب الغرناطي من الشعراء الذين كانت لهم وقفة في تأمل حضارة غرناطة، ووصف مظاهر تلك الحضارة لا سيما قصرها الحمراء، وما زالت اشعاره باقية خالدة منقوشة على جدران ذلك القصر وهو مقدم على ابن الخطيب وابن زمرك، بل ربما متفوق عليهما لانه (كان اسبقهم الى ذلك، فهو استاذهما ومعلمها لهذا النمط من الشعر)^(٣)، وابن الجياب في معظم اوصافه الحضريّة لم يخصص بمكان ويستقل

(١) ديوانه ص ٢٨٥ وانظر عنوان الدراية: ص ٢٨١-٢٨٢.

(٢) ينظر غرناطة في ظل بني الاحمر: ص ١٨٣-٢٠٠، يوسف الاول ابن الاحمر: ص ١٦٦-١٩٨،

القصيدة الاندلسية خلال القرن الثامن الهجري: ص ٢١٣/١-٢١٦.

* ذكر د. علي محمد النقرات انه زار غرناطة، ووقف على نقوش الحمراء وكانت بين النقوش اشعار لابن

الجياب. م. ن. هامش (١)، ص ٢٨٠.

(٣) ابن الجياب الغرناطي: ص ٢٨٠، وذكر مؤلفه اسباباً مقنعة لتقديم ابن الجياب منها؛ لانه سبقهم بالولوج إلى

هذا القصر. والامر الآخرة المدة الطويلة التي قضاها داخل القصر. وهي اسباب موضوعية لمن اراد أن يتعرف بدقة على شاعر الحمراء الاول.

بقصر فنراه يتابع منجزات ملوك غرناطة فيسجلها بشعره وهذه عظمة اشعار المدح اذ تأتي موثقة لافعال الممدوحين تلك الافعال التي تروي جانباً مهماً من جوانب الامه التي يعيش فيها ذلك الممدوح ويخصها بالعناية والاهتمام فاذا ما انشأ يوسف الاول ابو الحجاج (ت ٧٥٥هـ) برجاً منيعاً داخل اسوار غرناطة، امرع ابن جيباب لوصفه مفتخراً بما ابدعته انامل المبدعين وبراعة البنائين في عمل هذا البرج، هاك قوله فيه:

برجٌ عظيمُ الشأنِ في الابراجِ قد باهتِ الحمراءُ منهُ بتاجِ
قلهرةٌ ظهرتْ لنا واستتبطنتْ قصراً يضيئُ بنورهِ الوهاجِ
فيها بدائعُ صنعةٍ قد نوظرتْ نسباً من الافرادِ والازواجِ
وصنائعُ الزليجِ في حيطانِها والارضُ مثلُ بدائعِ الديباجِ^(١)

ونراه قد شغف بوصف هذه الابراج، فله قصيدة اخرى نظمها الشاعر على البحر نفسه^(٢)، وفي كل تلك القصائد يخرج منها ابن الجيباب الى المدح، ويوثق اعمال الممدوح، ويقص اهتمامه بالعمران واسس التمدن، ويبرز اهميتها التاريخية الحضرية. لم يقف ابن الجيباب عند حدود وصف الابراج، فله اوصاف حضرية عدة، فهو يقف عند القبة التي تعلوا دار السلطان، فيحدثنا عنها، وعن صاحبها فيقول:

ولاحتِ القبةُ الغراءُ خارجُها عنوانُ حسنٍ مبيناً أي تبيينِ
في صدرها الملكُ السامي المقيمُ بها للفضلِ والعدلِ قسطاسُ الموازينِ^(٣)

وفي قصيدة اخرى شغل بقصر السلطان محمد الثالث (ت ٧١٣)، واحتفانه بافتتاح قصره الجديد، وفيها يصف الشاعر القصر، وما فيه من مبان معمارية كالقبة والنافورة.. يقول فيه:

(١) ابن الجيباب الغرناطي: ص ٢٨٣.

(٢) ينظر: م. ن: ص ٢٨١-٢٨٢.

(٣) القصيدة الاندلسية في القرن الثامن الهجري: ٢١٧/١.

ياقصرُ نجدُ أنتَ أكرمَ منزلاً
فكأنَ قبَتَكَ العروسُ تَبَرَّجتُ
فلقد شَفَعَتِ الحُسْنَ بالأحسانِ
عندَ الزفافِ بحسَنِها الفنانِ
والشمسُ ترقمُ من وراءِ زجاجِها
والاسدُ تفخرُ حولَهُ أفواهَها
أبدأُ فتَقذِفُ ذائبَ المرجانِ^(١)

انها لوحة رسمت بانامل فنان بارع، وهي تكشف عن عظيم تلك المنجزات الحضريّة التي تفتخر بها نحن العرب مع شعر ابن الجياب.

اما عن لسان الدين بن الخطيب^(٢) فهو لم يدخر وسعاً ان يشيد بتلك الحضارة ويتغنّى بذلك العمران، بما فتح الله عليه من فكر، وثقافة تاريخية ودينية وادبية على وفق ان يضعها في اطار آياته وقولب قصائده ايما توفيق

وإذا ما وصلنا الى شعر ابن زمرك، رأينا الشعر الحضري الاصيل، والفن المعماري الرصين بكثرة قصائده وتنوع اوصافه التي شملت كل عباي بني الاحمر وقصورهم، ومراكز حضارتهم، لقد شغفت غرناطة العقول والقلوب، وسحرت العيون فجذبت حولها المفكرين والمبدعين والادباء... في عصر كانت حاضرتّه، ومركز خلافته، وبزوغ اشعاعه، وفي ذلك تقول: د. سهير القلماوي: (ما اعرف بلداً خلد الشعراء والكتاب وصفه، وقد حملوا هذا الوصف عواطفهم الجائشة، بقدر ما خلد العرب غرناطة. فلقد وصفوها فبز وصفهم وصف سائر المدن، لاقى الدقة والاقى الجمال، ولكن في العاطفة القوية التي كانت تلجبه وتملؤه حياة)^(٣). ومثل هذه العاطفة نجدها في أشعار ابن زمرك المدحية المرتبطة بالوصف فيو إذا ما مدح الغني بالله ذكر قصره بشنيل^(٤)، وراح يصف هذا القصر بما فيه من قباب، ورياض، وجياد... معتمداً في الوصف على نسق تركيبي اسهم في زيادة النص رونقاً وجمالاً:

(١) القصيدة الاندلسية في القرن الثامن الهجري: ٢١٨/١.

(٢) ينظر: ديوانه: ص ٢٥٢، ص ٢٦١، ص ٣١٣، ص ٣٢٥، ص ٣٥١، ص ٤٠٠، ص ٤٨٨، ص ٥١٢ - ٥١٤، ص ٥٤٠، ص ٥٤٤.....

(٣) ثم غربت الشمس: دار المعارف- مصر، سلسلة اقرأ (٧٦)، ١٩٤٩، ص ٢٠.

(٤) قصر شنيل: شنيل هو نهر يمر في غرناطة وفيه قصر للغني بالله.

تَطَّلَعَ مِنْ نَجْدٍ بِمَرْقَبِ قَصْرِهِ
 بَحِيثُ الْقَبَابِ الزَّهْرُ تَسْتَشْرِفُ الْعُلَى
 بَحِيثُ الْوَجُوهِ الْغُرُّ جَلَّلَهَا الْحَيَا
 بَحِيثُ الرِّيَاضِ الْخَضِرُ قَدْ جَلَّلَهَا الْحَيَا
 بَحِيثُ اسْتَمْرَ النَّهْرُ فِي غُلُوبِهِ
 بَحِيثُ الْجِيَادِ الْمُقْرِيَاتُ صَوَافِنُ
 بَحِيثُ يَمُوجِ الْبَحْرِ تَحْتِ ظِلَالِهَا
 بَحِيثُ أُمَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدًا
 فِيَا حَبَّذَا نَجْدًا وَيَا حَبَّذَا الْقَصْرُ
 إِلَيْهَا وَتَهْوِي أَنْ تَحُلَّ بِهَا الزَّهْرُ
 زَاهَا الْكَلَامُ الْحَرُّ وَالنَّسَبُ الْحَرُّ
 وَنَافِسُ فِي طَيْبِ الثَّنَاءِ بِهَا الزَّهْرُ
 يُجَرَّرُ أَدْيَالُ الْغَصُونِ وَلَا كَبْرُ
 بَحِيثُ السِّيُوفِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلُ السَّمْرُ
 وَلَكِنَّ ذَا عَذْبٍ إِذْ يَمْلِحُ الْبَحْرُ
 وَحَسْبُكَ فَخْرٌ لِأَيْقَاسٍ بِهِ فَخْرٌ^(١)

انه- كما نرى- لم يترك صغيرة ولا كبيرة في الوصف الا وسخرها لتكون في هذا القصر ، ومن ثم انتهى الى المدح وحسب هذا القصر فخرا لمنشأة وبانيه، لان هذا القصر منيف شاهق الارتفاع، وصل اعنان السماء وطاولته ايدي الغمام . فكان فخرا على المباني ، وكان نهره الذي أنشأ عليه فخرا على الانهار :

أَلَا أَيُّهَا الْقَصْرُ الْمُنِيفُ قُبَابِهِ
 بِشَنْيْلِ مَا النَّيْلُ الْمَشْهُرُ أَوْ بَصْرُ؟
 سَمَاءُ النَّدَى قَدْ ظَلَلْتِكُ عَمَامَةً
 فَلَا قَطْرَ إِلَّا مِنْهُ قَدْ جَادَهُ الْقَطْرُ

لقد نُقِشت اشعار ابن زمرك على الابواب، والقباب وخزائن الكتب، ومن الجهات كافة. وعلَّ المسرد التالي يبين لنا اهمية تلك الاشعار ووفرتها، وتناولها للمراكز الحضريّة والعمرانية المتنوعة:

(١) ديوانه: ص ١١٦.

عدد الآيات	الديوان	الغرض الشعري	المراكز الحضرية والعمرانية
٢١	ص ١١٥-١١٦	تهنئة من مرض	قصر شميل
٢٦	ص ١٢٤-١٢٥	مديح وذكر مباني الممدوح	القبة الكبرى (دار الرياض السعيدة)
١٣	ص ١٢٦-١٢٧	وصف مظاهر الحضارة	طيقان البهو
٨	ص ١٢٧	وصف وذكر صانعها	نقوش الطاقين
٧	ص ١٢٨	وصف مظاهر الحضارة	نقش القبة العربية
٣	ص ١٢٨	- - -	طاقى الباب الواحد
٣	ص ١٢٩	- - -	الطاق الأخر
١٢	ص ١٢٩	وصف مع المديح	نقش خصبة الرخام هنالك على الاسود
٢٣+٥	ص ١٣٠، ص ٣٠٨-٣٠٩	- - -	نقش بالدمار ^(١) الوجهة المناظرة
٥	ص ١٣١-١٣٢	- - -	الوجهة المقابلة
٧	ص ١٥٢	رمز حضري لأفعال الممدوح	نقوش البرطل ^(٢) الجانب الايمن
٥	ص ١٥٣	- - -	الجانب الاخر
٧	ص ١٥٣	- - -	الجانب الاول (المناظرة)
٣	ص ١٥٤	- - -	الجانب الاخر
٢٢	ص ١٥٤-١٥٦	وصف مع المديح	نقوش خزاني البيت
٢٥	ص ٣٠٦-٣٠٧	- - -	نقش على الخشب في القصر الكبير بدار الممدوح
١٤٠	ص ٥١٩-٥٢١	اوصاف حضرية عدة	دار الملك وفخامتها

وذكر ابن زمرك الحمراء في نصوص مستقلة^(٣) وذكر جنة العريف^(٤) فضلا عما
ذكرنا كل ذلك يدل على تمثّل حقيقي، للمظاهر الحضريّة لبني الاحمر، التي سرت في
فكر مبدعيهم وثقافتهم وأشعارهم.

(١) الدشار: يراد به الدسترة او البستان.

(٢) البرطل في المغرب والاندلس، البيت مكشوف الجدران.

(٣) ينظر ديوانه: ص ١٠٨، ص ٢٢٧، ص ٣٠٥-٣٠٩.

(٤) ينظر: م. ن.، ص ٢٦٢-٢٦٣، وجنة العريف هو قصر، مجموعة من الابنية والحدائق فردق ثلثة
السبيكة شمالي الحمراء). غرناطة في ظل بني الاحمر: ص ٢٣٨.

وفي القرن التاسع الهجري يطالعنا ابن فركون^(١) الشاعر المثقف المتحضر لينثر لنا صفات ممدوحه الاثير يوسف الثالث ومبانيه وعمرائه على عرائس شعره، فنجده يحضر تجديد قصر الامير ويشارك في نقوش الحمراء، من كل طاقاتها وعلى جميع جدرانها شعره الذي عرفنا فيه سمات الجزالة، وقوة اللفظ، وبراعة التصوير.

اما عن المباني الاخرى كالقلاع والمنارات والفنارات^(٢) فسارت جنباً الى جنب مع القصور والمنازل ودار الملك في تبيان معالم الحضارة، ومراكز العمارة، فقلعة بني سعيد^(٣) ماتفك توحى بسحر ومنظر قشيب توحى لابي جعفر ان يضعها في بوتقة ابداعه، وبين معاني حضارته يقول فيها:

الى القلعة الغراء يهفو بي الجوى
هي الدار لا أرض مساها وإن تات
اليسر بأعلى ما رايت منضه
لها البدر تاج والثريا شنوفها
اطلت على الحفص النضير فكل من
كان فوادي طائر زم عن ذكر
وحبها عني صروف من الدهر
تجلت بحلي كالعروس على الخدر
وما وشمها إلا من الأنجم الزهر
رأى وجهة منها تسلى عن الفكر^(٤)

إذا ما انتقلنا الى الحمامات، المظير الحضري الثاني لتشكيل الامكنة الحضريّة، وجدنا كما هائلا من هذه الامكنة وعند اغلب الشعراء -مدة دراستنا- وهذه الامكنة دليل على اهتمام بالنظافة والصيانة وتأمين وتهياة وسائل الحضارة من غسل وماء ومساحيق تنظيف. لقد كانت الحمامات الخاصة والعامة منتشرة في المدن والقرى الاندلسية وكانت تلقى العناية الخاصة... للمستحمين، فالامراء وابناء الخاصة كانوا يبنون الحمامات في قصورهم، بينما كان ابناء الطبقة الفقيرة يقصدون الحمامات العامة المنتشرة في الاحياء الشعبية^(٥) وهذا دليل على سعة الاهتمام بنظافة الفرد الاندلسي

(١) ينظر: ديوانه: ص ٢٧١-٢٧٢، ص ٢٧٣-٢٧٦، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٢) للمزيد عن هذه المباني ينظر: شعر ابي جعفر بن سعيد: ص ١٢٨، الروض المطار: ص ١٢١، ابن

الحياب -حياته وشعره: ص ٤٤٥، ديوان ابن الخطيب: ص ٣٥١.

(٣) قلعة بني سعيد: عقاب الاندلس الاخذ بازرار السماء، من غرر المجد والبناء، وهي رباط جهاد، وحصن

اعيان وامجاد. المغرب: ١٦٠/٢.

(٤) مجموع شعره: ص ١٢٤، ونكثر من الاستشهاد بشعر ابي جعفر لفرى مدى انعكاس الحضارة في شعره.

الحقيقة التي قدمنا فيها القول.

(٥) غرناطة في ظل بني الاحمر - دراسة حضريّة- ص ١٣٠.

وكبير العناية التي يحظى بها في وقت كانت تغط فيه اوربا في دمس عميق، ودجى^١ طويل.

لم يقتصر الشاعر الاندلسي في وصفه للحمام على اظهار المكان، زيبان حرارته، وفائدته فقط، بل؛ ذهب يعبر من خلاله عما يشاء من افكار وما تعاليه من عواطف فالاعمى التطلبي يتبادل الشعر مع ابن بقي^(١) في الحمام، ويؤكد تفوقه على خصمه على الرغم من عاهته في حين يراه ابن خلفا انه بيت النار، وشك في ان الذي يخرج من النار - مهما كان العذاب - سيدخل الجنة، ويهنا باللذة والاستجمام . وهذا ما ادته (اهلا) القابلة ان لنا صفات المرح والنشوة والسعادة بدخول ذلك البيت:

اهلاً ببيتِ النارِ من منزلٍ شـيـدٍ لأبـرارٍ وفـجـارٍ
نقصده ملتسـي لـسـذة فنـدخـلُ الجنـةَ فـي النـارِ^(٢)

وقد تداخل وصف الحمام مع اغلب اغراض الشعر التقليدية، فورد مع معاني العشق والغرام^(٣). لما في محيطه من نار وحرارة تحكي نار المحبين، وتشكو حرارة بعدهم عن المعشوقين وما اقتصر الشاعر الاندلسي على ان يتغزل بالمرأة، بل؛ تعداها الى الغلمان ايضا، لاسيما ما يضيفه هذا المكان على الغلام الوسيم من نفاضة وجمال. ويتركه في زينة ومنظر يجلب انتباه الشعراء، ويسحر قلوبهم، فيحرك اقلامهم.

وياتي الحمام مع معاني الذم ايضا؛ ابو جعفر بن سعيد الذي وصف في بيتين مبلغ سعادته بالحمام، وارتياحه لذلك المكان، نراه في مقطوعة يصب عليه جام غضبه، ويلعنه، ويتهمه بجمع الاوساخ، وازدحام الاندال... وربما كان هذا الوصف في نهايات حياته حين خسر وزارته، ومعشوقته، فادى ذلك الخسران الى تشاومه من كل مكان حتى ولو سبق القول فيه بما يرضي ويحب، هالك قوله داما:

(١) ينظر: ديوان الاعمى التطلبي: ص ٢٤٦، ديوان ابن بقي: تحقيق: د. محمد مجيد السيد، دار كركنا - دمشق ١٩٩٧، ص ١١٨.

(٢) ديوانه: ص ٣٧٣.

(٣) ينظر: ديوان ابن الزقاق: ص ٢١٥، ديوان الرصافي: ص ١٠٧، المطرب من اشعار اهل المغرب: ابن دحية الكلبي (ت ٦٢٣هـ) تحقيق: ابراهيم الايباري، القاهرة ١٩٥٤، ص ٧٧، ديوان الموحيدي: ص ١١٨، ديوانه ابن خاتمة: ص ١٢٣.

يأربّ حمامَ لُغنا بهِ
أفقٌ له قطرٌ حميمٌ كما
يخرقُ سحباً للدخانِ الذي
وقيتمُ يجذبني جذبةً
ويجمعُ الأوساخَ من لؤمهِ
وأزدهمُ الاندالُ فيه وقد
وجملةُ الأمرِ دخلنا بني
أبدئُ إلينا كلَّ حمامٍ
أصممتُ سهامَ من يدي رامي
لاحَ نعيمُ العارضِ الهامي
وتارةً يكسُرُ إيهامي
في عضدي قُصداً لأعلامي
ضجوا ضجيجاً دونَ إفهامٍ
سامٌ وعُدنا كبني حمامٍ^(١)

أما ابن شكيل الصديقي فله مقطوعة خصصها لحمام، وفيها وقف على براعة صنعه ودقة هذا البناء، متعرضاً لما فيه من أمور فيزيائية كالنار والماء الحار، رابطاً - بخيال طريف- بين الأرض والسماء التي تعود أصلاً لهذا الحمام، وكيف شكلت مناظر الحمام من زوايا مختلفة، يقول:

تلهي العيونُ رقومه فكانها
مجموعةٌ أضداده فترئى بها
حرانٌ منسكبُ الدموع كأنما
نُحيتْ بسيطة أرضه من مرمرٍ
وجلستْ سماوته السماء وإنما
قامتْ على عمُدٍ جليلين عرائساً
قد ألبستْ ساحاته ديباجاً
نارَ الغضا والوابلَ الثجاجاً
يحكي بذاك العاشقُ المنتاجاً
فجرئُ الزجاج به وثار عجاجاً
جعلتْ مكانَ النيراتِ زجاجاً
فترئى لها السمكُ المكللَ تاجاً^(٢)

ويأتي الحمام، هذا المكان المعروف في موقف خاص لدى الشاعر الاندلسي، وهذا الموقف هو الذي يشكل المكان عن طريق هذه الثيمة الحضرية ويعبر عن صميم التجربة الشعرية والفنية للشاعر. فابن السيد البطليوسي الفقيه اللغوي يرى في الحمام بناره ولهيه- عظةً وتذكراً لكل صاحب فطنة، وكل لبيب عرف الدنيا وما فيها. لنسمعه يقول:

(١) مجموع شعره: ص ١٤٠-١٤١.

(٢) ابو العباس احمد بن شكيل شاعر شريف: ص ٤٥.

أرئى الحمامَ موعظةً وذكرى
لكل فتىً أريبٍ ذي ذكاءٍ
يذكرنا عذابَ ذوي المعاصي
وأحياناً نعيمَ الأتقياءِ
شقا هجرٍ يشوبُ نعيمَ وصلٍ
وحرَّ النارِ في بردِ الهواءِ^(١)

ان التضاد الحاصل في الحمام بين (ناره الحارة وبرودة الهواء) هي التي اوحت لابن السيد رسم هذه الصورة، وجعلته يتذكر ما اعد للاتقياء من نعيم ومغفرة، وما اعد لاهل المعاصي من عذاب وانتقام، وعلى اية حال، ان المكان هو المحور الاول في رسم هذه الصورة، وهو المخفر الرئيس لخيال الشاعر للجمع بين هذي المتضادات.

أما الرندي فنسي تماماً ما يحدث في الحمام، من حر وقر، او من عذاب وارتياح، فقد جلبت اهتمامه امرأة برزت له وهي خارجة من ذلك المكان، فاوحته له مخيلته استغلال جمالها وهي خارجة برسمها على شاكلة قوله:

برزت من الحمامِ تمسحُ وجهها
عَن مِثْلِ مَآءِ الْوَرْدِ بِالْعَنَابِ
والماءُ يقطرُ مِن ذوائبِ شعرِها
كالطلِّ يسقطُ من جناحِ غرابٍ
فكانها الشمسُ المنيرةُ في الضحى
طلعتْ علينا من خلالِ سحابٍ^(٢)

انه المكان ، وما فيه من حضارة، وما يبعث للمرء من جمال وتزيين، جعلت اوصاف الرندي متحضرة بما يناسب المكان، وعلت العبارات (ماء الورد، العناب، الطلّ، الشمس المنيرة، الضحى) أدت معانيها بعفوية وصدق، ولذا جاءت المقطوعة لتعبر عن موقف نفسي رأت في المرأة ما يدفعها لتعبر عنه بما جال في خلدتها، وهذا ماتسعى اليه المقطوعة في احد الأسس التي تقوم عليها في البنية والدلالة^(٣).

في حين أنّ أبا البركات البلقيني، لم يقف من الحمام موقف العاشق أو النام أو الواعظ أو المشاهد، إنما وقف امامه موقفاً حقيقياً لا يخلو من طرفية، فهو يحدثنا عن نفسه وقد آل اليه المبيت في حمام الخندق-داخل المرية- فانطفأ المصباح ، وبقي حائراً، فخطر بباله ما يقوله الناس من تخيل الجن في الارحاء والحمامات، وعدم اقدام

(١) مجموع شعره: ص ٩٧.

(٢) شعر الرندي: ص ٦٩٣.

(٣) ينظر: بناء التصيدة في النقد العربي القديم: د. يوسف حسين بكر، دار الاندلس-بيروت، ١٩٨٣، ص

الناس اليها في الظلام، ثم يقول: (فأرتجلت هذه الابيات، وقد شعرت بقوة في نفسي، ورفعت بذلك صوتي):

زعم الذين عقولهم مقدارهما
إن الرحن معمورة بالجن وال
إن كان ما قالوه حقاً فاحضروا
فلئن حضرتكم فاعلموا بحقيقة
إن عرضت للبيع غير ثمين
حمام عندهم كذا بيقين
للحرب هذا اليوم من صفين
إتي مصارع قيس المجنون^(١)

انه المكان المظلم المقفر ، على الرغم من حضارته ونفحة للرجل والمرأة، للقاصي والداني، القريب والغريب، إلا انه تحول إلى شيء آخر ، تحول إلى مصدر موح بالرهبة والخوف والوحدة، وهكذا هو المكان إنه ما يثير فينا انفعالاتنا، وما يوجج مشاعرنا، نتيجة مواقف معينة، وحالات مختلفة.

ما نعينه بالاماكن الهندسية العامة هي تلك المظاهر الحضارية التي انتشرت في شوارع الاندلس. وبين مدنها وفي ميادينها العلمية، اذ طغت هذه المظاهر على الشعر الاندلسي، وشكلت بذلك مكانا اخر من الامكنة الحضرية في الاندلس، وقد استنزفت هذه الامكنة ذهن الشاعر، وشدت انتباهه فراح يصفها متخيلا ومبتكرا لها احداث من صنعة، واشخاص من وحي فنه. وهذا هو الفرق الاساسي بين الشاعر والآخرين لانهم ينظرون الى الاشياء بعينهم وعقولهم، اما هو فانه ينظر اليها بخياله وعاطفته، فيسبغ عليها مالا يراه الآخرون ولا يحسون بها.

هذا الاعمى التظلي يصف اسد رخام (او نحاس) يرمي الماء على بحيرة. فيقول:
اسدٌ ولو أني أنا قشمة الحسب لقلت: صخره
وكأنه أسد السما ء يمج من فيه المجره^(٢)

هل نلاحظ كيف سما الخيال على الصورة؟! وكيف انها صدرت بمنزل هذا الابتكار من شاعر كفيف، والصورة مرئية واضحة تمام الوضوح!؟

(١) شعر البلقيي: ص ٧٩.

(٢) ديوانه: ص ٢٤٩، وذكر صاحب بدائع البدائه انه- وصحبه- أعجبوا بهذا الوصف فراحو يتعاطون الشعر على غراره، وفي شاكلته، بديهية ينظر: بدائع البدائه: علي بن ظافر الأزدي (ت ٦٤٣). تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، مكتبة الانطو المصرية- القاهرة، ١٩٧٠، الباب الرابع، ص ٢٠٥-٢٠٧.

في حين رأى محمد بن عثمان (ت ٥٣٣هـ)^(١)، في الصنم الذي بشاطبة^(٢) واعظاً متكلماً فهو من حيث الوعظ لا ادل عليه وهو يستلهم قصص الامم الغابرة والاقوام الفاتته ومن حيث التكلم فلا يوجد ابلغ من قيس بن ساعدة الا يادي الرجل المعروف بالبلاغة والبيان في كلامه ووعظه يقول في هذا الصنم:-

بقية من بقايا الروم معجبة
لم ادبر ما أضمرها فيها سوى أمم
كالمبرد الفرد ما أخطأ مشبهه
كأنه واعظ طال الوقوف به
واعجب إلى حجر صلد يكلمنا
أشجى وأوعظ من قيس لمن فهما^(٣)

أبدئ البنائة بها من علمهم حكما
تتابع بعد ستموه لنا صنفا
حقاً لقد برد الأيام والأمم
مما يحدث عن عاد وعن إرمما
أشجى وأوعظ من قيس لمن فهما^(٣)

انه حكمة الزمان وشاهد الناس على افعالهم مهما تغيروا أو تبدلوا انه المكان الذي يثير فينا فلسفة حقيقية تجاه كل شيء، ونحو أي ثقافة تاريخية ادبية أو دينية.

اما عن الاماكن الهندسية المبتكرة فهي المظاهر العمرانية التي شكلت ابتكاراً جديداً في ميدان الحياة العمرانية في الاندلس وغيرها وهذه الاماكن تحفز الخيال وتنشط الابتكار بشكل اكبر من سابقتها لانها على ارض الواقع تسحر العيون والعقول، فما بالك بالشعر الذي هو محض خيال ولعبة ابتكار جديدة تجري في دم الشاعر، وعروقه وفكره فابو العباس احمد بن حنون الاشبيلي (المائة السادسة)^(٤)، حينما يرى منبع ماء على شكل اسد، لا ينأى من ان يترك لريشته مهامها في رسم هذا الشكل، فجاء هذا الرسم على نحو ما عرف عنه من جودة واتقان، وحسن استخدام لفنون البيان، يقول:

(١) محمد بن احمد بن عثمان من اهل بلنسية ولد ببيزانة من اعمالها واليا بنسب يكنى ابا عامر كـ من حدة الادباء ومشاهير الشعراء. ينظر: زاد المسافر ص ١٢٣، الذيل والتكملة: ابن عبد الملك المراكشي. دار الثقافة بيروت، ط ١، ١٩٧٣: ١١/٦.

(٢) شاطبة: مدينة شرقي الاندلس بالقرب من شقر وهي حاضرة فيها مساجد وفنادق. ينظر: معجم البلدان: ٣٠٩/٣، الروض العطار: ص ٣٢٧.

(٣) زاد المسافر: ص ١٢٣، الذيل والتكملة: ١١/٦ وحصل حطل في ترتيب البيتين الاخيرين في المصدرين.

(٤) ابو العباس احمد بن حنون الاشبيلي، كان شاعراً مجيداً حسن التصرف في افانين النظم، بارع تشبيهاً، بديع الاستعارات، متقدماً في المقطعات. ينظر: زاد المسافر: ص ٩٢، رايات المبرزين: ص ٤٢، المغرب: ١/٢٤٤، الذيل والتكملة: ١/١٠٠.

وموهم قصدَ حضنَ ليسَ مقصدهُ
تقبُّضُ الليثِ حرصاً للوثوبِ علىِ
إلا السكونَ فماشى يُحركُهُ
فريسةً وحذارِ الفسوتِ يدركُهُ
والماءُ في فيه كالثعبانِ مضطرباً
يُبغى التخلُّصَ منه وهو يُمسكُهُ^(١)

ولا شك في ان براعة الصورة في البيت الاخير عندما شبه الماء بالثعبان لسهولة انسيابهما وسرعتهما ومنظر كل واحد منهما في هذه الانسيابية والسهولة، فكيف بمن امسك بهما وهما يريدان خلاصاً. حتما ان الذهن سيتعب وينصب وهو يحاول الربط بين المشبه والمشبه به كحقيقة، مثلما ربط بينهما شاعرنا كالفاظ وكلمات بحنكة وبراعة. فدقيقة التشبيه لا يكتسبها من طرفيه فقط، ولا من وجه الشبه القائم بينهما بقدر استمرارها من الموقف الذي يدل عليه السياق ويمتدعيه الحس الشعوري المنبثق خلال الموقف التعبيري^(٢).

ونقف في شعر جعفر ابن سعيد على صورة حضرية رائعة رائقة، تلكم هي صورته يصف جارية راقصة بسيوف وظيفور رخام يصنع في انبوبة الماء صورة خباء:
وراقصة ليست تحرك دون أن يحركها سيفاً من الماء مصلت
يدور بها كرها فتتضي صوارماً عليه فلا تعباً ولا هو ييهت
إذا هي دارت سرعةً خلت أنها إن كل وجه في الرياض تلفت^(٣)

ان عوامل الحركة بثبوتها في الصورة وهي مكثفة بصورة انية لتبرز رسم المنظر المشاهد احسن رسم وبلا ريب ان المكان كان وراء هذا التكتيف وهذا الانتقال في الرسم فهو- اعني المكان-كامن في الزمن والحركة.

(١) الذيل والتكملة: ١٠٠/١/١. وقد ذكره نور الدين بن الوزير (ت ٦٧٣ هـ) في المرقصات والمطربات:

دار حمد ومحيو / القاهرة، ١٩٧٣، ص: ٤٤. وكما نعلم ان ابن وزير عرف المرقص بانة :- (ما كان مخترعاً مولد أيكاد يخلق بطبقة الاختراع) م. ن: ص ٧.

(٢) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور: د. رجا عيّد، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٧٩، ص: ١١٠.

(٣) مجموع شعره ص ١٢٨-١٢٩.

وإذا بعدنا قليلاً ربما نقف في شعر أبي بكر يحيى بن مجبر الفهري (ت ٥٨٨هـ)^(١) على صورة أكثر روعة وحركة وتمثيلاً لواقع الحضارة التي عاشها الشاعر. رسي عنيت بوصف (مقصورة ترفع بالآلات هندسية من تحت الأرض عند اتيان الأمير للصلاة ثم تعاد)^(٢) يقول أبو بكر:

طوراً تكونُ بمن حوتَهُ محيطَةٌ فكأنَّها سورٌ مِن الأسوارِ
وتكونُ طوراً عنهم متجويبةً فكأنَّها سيرٌ من الأسرارِ
وكانَّها علمتْ مقاديرَ السورِ فتصرفتْ لهم على مقاديرِ
فاذا أحستْ بالأمير يزورها في قومه قامتْ إلى الزوارِ
يبدو فتبدو ثم تخفي بعده كتكنون الهالات للأقمارِ^(٣)

انها صورة فنية نفيسة، فقد احاطت بما لم تحط به صنوها في النماذج الشعرية السالفة. اذ رسمت الحركة التي ترفع بها وتحيط بمن تحوي اذا ما رفعت، ثم تحجب عنهم اذا ما انتهت الصلاة وازف وقتها. وهي عالمة بمقادير الوري وحاسة بزيارة الامير فرسمها على عادة ما يقدمه الزوار من القيام والاحترام.

ولم يرد لها ان تكون مجرد جماد او اخشاب، فاضاءها بها لات القمر، ونورها الساحر حوله، وهي -الهالات- لا تظهر، او يعرف لها نور الا عند بزوغ القمر - الممدوح- فاحسن الوصف واتقن الرسم. واحكم التعبير.

(١) ابو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الفهري الشقوري، نشأ بمروسة وتادب بها ثم سكن اشيلية. انتقل الى مراکش- عاصمة الموحدين- الذين قال فيهم امداحا كثيرة. وبها كانت وفاته. اديب. شاعر، متقدم في طريقة الشعر؛ برع فيها وفاق اهل زمانه. ينظر: زاد المسافر: ص ٥١؛ بنية المنسر من رجال اهل الاندلس: ابو جعفر احمد بن يحيى الضبي (ت ٥٩٩هـ)، تحقيق: ابراهيم الايباري، دار الكتاب المصري- القاهرة-، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ١٩٨٩، (ترجمة ١٤٩٨) ٦/٦٨٣، وفيات الاعيان: ١٣/٤، الاحاطة: ٤/١٨-٤٢١؛ مختارات من الشعر المغربي والانلسي: مجهولة المؤلف يعود القرن الثامن الهجري، تحقيق: ابراهيم بن مراد، دار الغرب الاسلامي؛ بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص ٧٩، فتح الطيب: ٢٣٧/٣-٢٤١.

(٢) السحر والشمر: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: كونستنته فريد، مدريد. ١٩٨١. ص ١٤٥.

(٣) رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة، ٤٢٩/١، السحر والشمر: ص ١٠٥. للمزيد عن هذه الامكنة ينظر: ديوان ابن الزقاق: ق ٢٢، أدباء مالقة: ص ١٠٣، تحفة القادم، ص ٢٠٧. ديوان ابن رمسك: ص ٣٦٢-٣٦٣.

فنياً؛ تعود الاجادة والاحسان في الوصف والرسم والتعبير الى تكرار (كأن) ولاسيما انها اتصلت بالهاء التي تعود على هذه الالة مما يدل على شدة عناية ابي بكر بالموصوف وتعلقه به. كما ان التشخيص في (تصرفت، وقامت) اسبغ على الابيات حركة مستمرة ساعدت في اجمال الوصف، مع دقة منسقة.

اما عن المظاهر الصوتية فلم تقصر هي الاخرى عن العناية برسم حركة هذه الالة وبيان خضوعها للمدح، وركوعها امامه، مع العناية بنشر الاصوات السهلة المألوفة التي من شأنها اشاعة الجرس الموسيقي الذي يمثل هذه الحركة، ويساعد في ترويق الفنون البيانية التي ذكرناها، وأرى ان الجنس في (الاسوار، الاسرار) والتصدير في (مقادير، مقدار) و (يزور، الزوار) ساعد على نشر هذه الاصوات التي اغدقت الجمالية، والسهولة على الأبيات، وابتقت على علائق التشبيه والتشخيص اصيلة متينة. ومن صور الأمكنة الحضرية في الاندلس المتنزهاة والمتفرجات التي عملت باحكام ومهارة، وهي وان كانت تمثل مظاهر الطبيعة الصناعية، او يمكن عدّها إحدى افرزات الطبيعة الاندلسية عموماً، الا انها تدخل نطاق حديثنا عن المكان الحضري لاسيما ان هذا النوع من المظاهر مرتبط بالمدن التي انشأت فيها، والتي كان يرتادها الناس لنسوح عن مشاكلهم الاجتماعية، أو لأنها توفر عوامل الارتفاع، وتعد بحد ذاتها خروجاً عن الواقع المعاش ولو لمدة قصيرة.

فمن منزهات قرطبة منية الزبير المنسوبة الى الزبير بن عمر الملقب ملك قرطبة،

وفيه يقول ابن بقي:

سقى الله بستان الزبير ودام في
فكائن لنا من نعمة في جنبه
هو الموضع الزاهي على كل موضع
اهيم به في حالة القرب والنوى
ومن ذلك النهر الخفوق فؤاده
مجاربه سيل النهر ماغنت الورق
كبرته الخضراء طالعها طلق
أما ظله ضاف أما ماؤد دفق
وحق له منى التذكر والعشيق
بقلبي ما غيبت عن وجهه خفق^(١)

° المنية جناح واسعة تنقل اليها غرائب الفروس، واکارم الشجر من كل ناحية، ود تلحق بالقصر النكي. ينظر: تاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس حتى سقوط الخلافة: د. السيد عبد العزيز سالم، الإسكندرية،

٢٠٠٠، ص ٢٠٧.

(١) ديوانه: ص ٦٦.

ومن منتزهات قرطبة ايضاً السدُّ وهو: (الرصيف الذي كان يمتد من الناحية الشرقية لمدينة قرطبة الناحية الغربية للقصر، ثم يواصل سيره بعد ذلك فيحيط بالسوق العظمى نحو السهل الذي يقع فيه المصارة والصلاة)^(١)، قال ابن سعيد: (اخبرني والدي ان الشاعر المبرز ابا شهاب المالقي انشده لنفسه واصفا يوم راحة بهذا السد):

ويومٌ لنا بالدلولورْدَ عيشه يعيشه أيام الزمانِ رددناه
بكرنا له والشمسُ في خدرِ شرقها إلى ان اجابت اذ دعا الغربُ دعواهُ
قطعنا شدواً وأغتباقاً ونشوةً ورجع حديثٍ لورقِ الميتِ احياءُ
على مثله من متنزهٍ تبتغي المنى فإله ما أحلى وأبدع مرادُ
شدتنا به الارحا والقت نثارها علينا فاصغينا له وقبلناه
لنن بان إنا بالانين لفقده وبالدمع في إثر الفرقِ حكيناه^(٢)

أما ابن عميرة المخزومي، فله قصيدة طويلة يصف فيها نزاهة قام بها مع صحبة في اشبيلية،^(٣) وهي تضم لوحات عدة تصب في بيان جمال اشبيلية، وروعة منتزهاتها، لم لا وهو القائل فيها:

ياحمص إنك في البلاد فريدة ببديع خمّن جَلَّ عن تحسين

ويصف شاعرنا المخزومي شنتبوس من منتزهات اشبيلية^(٤) بما يناسب مكانه الجميل. ومنظره القشيب فيقول فيه:

حتّى بلغنا شنتبوس وبأله من مشهد بهوى النفوسِ قدين
حيث القصور البيضُ يرمقُ حسنها فيكون قيدَ نواظرٍ وعيون
بهرت جمالاً في الدجى حتّى ترى معها عمودَ الصبحِ غيرَ مبين
فهى النجومُ بل البدورُ لأنّها تزدادُ حسناً في الليالي الجون
قد ألفت اجزاؤها فتأسبت كتناسب النغمات في التلحين
طاب الزمانُ بها فما بنيساتها أتدئ ندىً من آبٍ أو كساتون^(٥)

(١) قرطبة حاضرة الخلافة في الانلس: د. السيد عبد العزيز سالم، بيروت، ١٩٧١: ٢٠٢/١.

(٢) نفع الطيب: ٤٧٥/١.

(٣) ينظر: تحفة القادم: ص ٢١٠، ابو المطرف ابن عميرة المخزومي: ص ٢٣٨.

(٤) ينظر: نفع الطيب: ١٧١/١.

(٥) تحفة القادم: ص ٢١١، ابو المطرف ابن عميرة المخزومي: ص ٢٣٩.

إذا ما بقينا نتحدث عن مثل هذي المنزهات، ومادبجته اوصاف الشعراء فيها فاننا لن ننتهي من الموضوع،فماذا نقول في اشبيلية او بلنسية او غرناطة ... كما ان اغلب الشعر في هذه المنزهات قيل في جمع من الشعراء (١) وهذا ما يؤدي الى عاملين؛ الاول: الاستطراد في الوصف حتى لا تتكرر المعاني، او تمل الصور، والآخر؛ شدة العناية برسم الصورة، اذ هو ميدان تنافس ادبي قبل ان يكون مكانا حضاريا، او منزها جماعيا. وعلى اية حال؛ ان نظرتنا الى هذا المكان نظرة حضرية تاريخية، وعل ما طرحناه من افكار، وما عرضناه من نصوص ادت تلك النظرة بموضوعية واضحة، وشمولية دقيقة.

(١) للاستفادة ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر: ٤٩١/٢-٤٩٢، تحفة القادم: ص ١٥١، ص ٢١١-٢١٢، شعر ابي جعفر بن سعيد: ص ١٢٠-١٣١، شعر مرج الكحل: ص ٤٧، المغرب: ٢٩٩/٢، السروض المعطار: ص ٤٢، الاحاطة: ٣٤٨/١، نفع الطيب: ١/١٠-١١، ١٥٣، ١٥٦، ٢٠٨، ٤٧١، ٤٧٥، ٥٤٢، البسطي اخر شعراء الاندلس: ص ١٢٥. والمراجع التي تحدثت عن هذه المنازه: في الشعر الاندلسي: د. عدنان مصطفى صالح، دار الثقافة- الدوحة، ١٩٨٦؛ ص ٣٩-٩٣، قرطبة في العصر الاسلامي - تاريخ وحضارة-: د. احمد فكري، الاسكندرية، (د.ت)؛ ص ١٨٢-١٨٤؛ مدخل الى الادب الاندلسي، ص ٨٨-٩١؛ تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس: ص ٢٠٦-٢١٢.

المبحث الثاني: المكان الآني.

هو المكان الذي يعيش فيه الشاعر حاضره، ويشهد حوادثه التي تكون محوراً لاهتماماته، ومداراً لقصائده.

وعن صفات هذا المكان في الشعر الاندلسي، فيمكن القول بأنه كان محملاً بمعاني البكاء والالم. وحكى غربة شاعره وغربة اهل الاندلس لاسيما فيما يتعلق بأدب الاستجداد الذي ارتبط برثاء المدن والأماكن التي سقطت بيد النصارى، ففي المكان الآني اختفت قيم الالفة والانتماء لتحل محلها حالة النفور والاستصراخ. ومن ثم البحث عن وسائل الاستقرار النفسي الذي يريده الشاعر وعموم بني ادم في المكار الذي يعيشون فيه، وينعمون بظله.

اذن؛ فالمكان الآني عند الشاعر الاندلسي كان مكاناً مرفوضاً على الاغلب، متمسماً بالعدوانية، سالباً نفاء الحياة الآمنة، مشعراً بكم هائل من معاني الشكوى والحسرة بحسب المادة الشعرية التي وجدناها في تراث هذا الشاعر ونتاجه، والتي ارتأيت قسمها على نوعين اشعر انهما اكثر قدرة على اعطاء سمات المكان الآني والتعريف بدلالاته، وهذان النوعان كانا في:

1. **الأمكنة الآنية المستوحاة من موروث الامكنة التاريخية.** الشعر الذي هو مركز ثقافة المبدع يحوي احداثاً ومعارك وغزوات يمدح ابطالاً ويرثي قادة . يذكر نصاً قرانياً وآخر حديثاً شريفاً. وثالثاً يقف على ابيات الشعراء السابقين، أو ينهل حكمة من هنا. وقولاً مأثوراً من هناك كل ذلك من مخزون ذاكرة الشاعر التي هي (مصدر اسناساً من مصادر تمويل التجربة بعناصر نشاط وفعل متنوعة يعمل النص الشعري على تشكيل اجزاء مهمة من كيانه النصي، استنادا الى معطياتها وما تفرزه من قيم اثر تفاعلها الجوهرية مع اكثر عناصر التجربة خصوصية وحرارة بحكم ما تنطوي عليه الذاكرة من طاقات تاريخية واجتماعية ونفسية متركمة متنوعة الشكل والقيم والتأثير)⁽¹⁾. وحتماً ان تكون ذاكرة شاعرنا الاندلسي قوية تستند على استلهاام المؤثرات التاريخية، ومنها الامكنة التي تشرح تلك المؤثرات وتشكل تجربة من تجارب الشاعر نحو الاحداث التاريخية ونتائجها ويعود اثر هذه المؤثرات على شاعرنا الاندلسي قوياً متيناً لانها:

(1) المتخيل الشعري: د. محمد صابر عبيد، منشورات اتحاد ادباء العراق - بغداد، ١٩٨٠، ص ٢١.

أ- بشكل عام: هي تعود الى تاريخ بهي ، وماضٍ مشرقٍ يمثله اولئك الرجال الذين باعوا انفسهم واموالهم لله فاستحقوا خلوداً سرمدياً، وخلفوا اثاراً عظيماً في سبيل التضحية ونشر مبادئ الدين الحنيف الذي طغى حبه على سائر شؤون الحياة الاخرى.

ب- بشكل خاص: ان الشاعر الاندلسي-مدة دراستنا- استلهم من احداث عصور الاندلس السابقة ما يمكن ان نجعله رمزاً تاريخياً لاسباب عدة، اولها: انه افادنا في التعرف على بعض ميزات تلك العصور. وهذه فائدة تاريخية قبل ان تكون احياء ادبياً، أو رمزاً شعرياً.

وثانيهما؛ انه قصص علينا ارهاصات حياته ومشاكلها المختلفة من خلال اللجوء الى الاحداث السابقة التي شابهت احداث عصره، وازمة ابناء حيله، وهذا جانب اخر مهم افادتنا به المعلومة التاريخية.

وثالثها؛ انه كشف لنا بوضوح عن الامكنة الآتية التي استوحاها الشاعر الاندلسي من تلك الامكنة التاريخية التي ذكرها والتي عرفت باشياء، ورمزت لدلالات سرعان ماتتبادر الى الذهن حال ذكر المكان، او ما يدل عليه.

ناهيك عن اثر الموروث -بانواعه- على النص الشعري ، فـ(الشاعر حين يدع قصيدة لابد ان يكون واقعاً تحت تأثير تقاليد تراثه الشعري، كما انه يؤثر في هذا التراث ويغير من نظرتنا اليه فالعلاقة بين الماضي والحاضر علاقة اتساق)^(١).

لقد استوحى الشاعر الاندلسي كل المؤثرات التاريخية في شعره، ومنها الامكنة المشرقية والاندلسية مستغلاً دلالاتها ورموزها. فعندما يذكر بابل يذكر معها صناعة الخمر. وكيف كانت الخمر في هذه المدينة معتقة تجلب اليها الانظار، وتجذب النفوس. يقول ابن صارة في هذا الاحياء المكاني الشهير:

(١) البناء الفني في ديوان الهذليين- دراسة تحليلية- : د. اياد عبد المجيد ابراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ٢٠٠٠، ص٢٦٩.

ماعلئ بابل لو استقبلتها واجتنت من ثمارها الأسحارا (تأريخي)
 كل خمرة ولم تسق خمراً تلبس الحسن والدلال خمرا
 تذر السامعين يثنون اعطا ف سكارئ وما هم بسكارئ
 لو تغلقن في مسمع رضوى لانتئي راقصاً وخلق الوقار^(١) (أنبي)

هل ترى كيف استلهم الموروث بكل اشكاله؟ فالاول؛ كمن في المكان (بابل) وما عرفت عنه- كما اسلفنا- . والثاني؛ حينما استضاء بالنص القراني من الآية الكريمة (وَبَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسَكَارَىٰ)^(٢)، إفعاماً منه في اتقان الصورة، واجادة المعنى. والآخر؛ في رضوى وهو الطود الشامخ الضخم ليجعله راقصاً، تاركاً الوقار، متخلياً عن شموخه امام اصوات الجواري الناعمة، بين بريق الخمرة وسحر المرأة. ان المكان الاول (بابل) هو الذي دعا الى بناء خاتمة النص، وأسهم في اتمامه على هذه الشاكلة. وبلاشك فان هذا المكان يدل انياً على انصهار ابن صارة مع جمع من صحبه حول مائدة الشراب، واصوات النواغم اللواتي تركنهم سكارئ وما هم بسكارئ. وينظر الرصافي البلنسي الى بابل مكان السحر. فيطيب له ان يفتخر بنفسه، ويقومه مستغلاً دلالة هذا المكان وما عرف عنه ، يقول في خاتمة قصيدة:

هَلْ دَرْتُ بِبَابِلُ أَتَا فَنَّةً تجعلُ السحرَ من السحرِ رقى (تأريخي)
 نَنقِشُ الْآيَةَ فِي اضْلَاعِنَا فَتَقِينَا كُلَّ شَيْءٍ يُنْقِى
 مِنْ بَنَانِ الْوِزْرِ الْأَعْلَى الَّذِي يُخْجَلُ السَّحَرُ إِذَا مَا نَطَقَا^(٣) (أنبي)

فالمكان التأريخي (بابل) اثار دلالة آنية جعلها الشاعر خاتمة ابياته ليفتخر بشئ عرف عن اهل هذا المكان في المشرق- ديناً^(٤) وادباً وتأريخاً-. فما ان ذكرت بابل حتى ذكرت معها صناعة السحر وذكر معها السحارون فاراد الرصافي من خلال هذا الإيحاء المكاني ان يبرز نفسه على اهل الصنعة، واهل المكان الذين عرفوا به. وهذا ناتج من

(١) فلاند العيان: ٨٤١/٤؛ الخريدة: ٢٧٠/٢-٢٧١.

(٢) سورة الحج، بعض الآية: ٢.

(٣) ديوانه: ص ١١٢.

(٤) ينظر: سورة البقرة، الآية ١٠٢.

حالة نفسية متأزمة رأت في الفخر متنفسها، ورأت في المكان التاريخي (بابل) ما ييوح عن هذا المتنفس ويعبر عنه.

أما ابن الأبار؛ فهو عندما يذكر بابل يذكر جمال معشوقه، ودلاله وصدده على انه -المعشوق- ما حلّ بابل أو سكن بها ولكن؛ ما عُرف عنها من جمال المكان وتوارث السحر ومدينة الخمر ما يجعله يجذب النفس الى بيتيه عن طريق هذا الإيحاء المكاني ولما في بيتيه من محسنات بديعيته رشيقة. يقول:

مَنْ عَاذِرِي مِنْ بَابِلِي طَرْفُهُ وَلِعَمْرَهُ مَا حَلَّ يَوْمًا بِبَابِلَا
اعْتَدَهُ خَوْطًا لِعَيْشِي نَاعِمًا فَيَعُودُ خَطِيًّا لِقَتْلِي ذَابِلًا^(١)

وقد استحضرت وقائع اسلامية بارزة، ومعارك مشهودة خاضها المسلمون في الشرق لدى الشاعر الاندلسي ولاسيما في غرض المديح^(٢). والشاعر من خلال هذا الاستحضار لتلك الوقائع وامكانها ونتائجها كوقعة بدر الكبرى وغيرها انما هو يضع ممدوحه اسام تلك البطولات والامجاد التي صنعها اولئك الرجال.

لقد سجلوها باحرف من نور في سفر الامة الاسلامية المجيد. فالشاعر الأندلسي انما يستنهض الهمم ويخاطب غيرة اهل الاندلس ليكونوا السد المنيع، والرادع الحصين لمن اراد ان يدنس ارضهم، ويحتل بلادهم، ويبدل شعائرها وتعاليم دينها.

ولذا فالامكنة الآنية التي يمر بها الشاعر الاندلسي وشعب الاندلس اوحى نبيذا الشاعر ان ينظر إلى موروثه التاريخي، فذهب بذكر بطولات الصحابة (رضوا الله عليهم)، ويمجد القادة، ويخلد الشهداء، ويذكر فتح المسلمين للبلاد ايام الدولتين الاموية والعباسية رغبة منه في اسباغ القوة والمنعة على جنود الجيش الاسلامي في الاندلس، وبث روح الاستنفار بين هؤلاء الجنود بما يقوي عزائمهم، ويرفع ارادتهم اثناء مواجهة العدو.

ولم يقتصر ورورد الامكنة الآنية المستوحاة من سمات الامكنة التاريخية ومدلولاتها على ذكر المدن وما عرفت به، او توقفت على قصائد المديح وذكر المعارك فحسب وانما؛ جاءت في مفاصل القصيدة الاندلسية في اغراض اخرى مستلهمة امكنة اخرى.

(١) ديوانه: ص ٤٥٦.

(٢) ينظر: ديوان الاعمى التتيلي: ص ٢٠٥؛ ديوان ابن الخطيب: ص ٢٦٨؛ ديوان ابن مرمك: ص ١٢٢.

شبر فراند الجمال: ص ٢٠٨، ص ٢٣٢.

فالاعنى التطيلي اذا رثى جاء بمقدمة طويلة زاخرة بالامكنة والاشارات التاريخية، كما جاء بكثير من الاسماء والشخصيات التي لعبت اثراً بارزاً في حضارة الاقوام التي عاشوا بين ظهرانيها، يقول:

خُذَا حَدَّثَانِي عَنْ قُلِّهِ وَفُلَانِ
وَعَنْ دُولِ جِسْنِ الدِّيَارِ وَاهْلِهَا
وَعَنْ هَرَمِي مَصْرَ الغَدَاةِ، اَمْتَعَا
وَعَنْ نَخْلَتِي حَلْوَانِ كَيْفَ تَنَاءَتَا
وَطَالَ ثَوَاءُ الْفَرْقَدِيِّنِ بَغِيْطَةَ
وَزَايِلَ بَيْنَ الشَّعْرِيِّينَ مَصْرَفَاءَ
فَإِنَّ تَذْهَبَ الشَّعْرِيَّ الْعُبُورَ لَشَأْنِهَا
وَجُنَّ سَهِيْلٌ بِالثَّرِيَا جُنُونَهُ
وَهِيَهَاتَ مِنْ جَوْرِ الْقَضَاءِ وَعَدْلِهِ
فَاجْمَعْ عَنْهَا آخِرَ الدَّهْرِ سَلْوَةً
وَاعْلَنْ صَرْفَ الدَّهْرِ لِابْنِي نُوَيْرَةَ
وَكَأَنَّا كُنْدَمَاتِي جَذِيْمَةَ حَقْبَةَ
فَهَانَ دَمٌ بَيْنَ الدَّكَادِكِ وَاللَّوِيِّ
فَضَاعَتْ دَمَوْعٌ بَاتَ يَبْعَثُهَا الْاَسِيَّ
وَمَالَ عَلِيَّ عِبْسٍ وَذِيْبَانَ مَيْلَةَ
فَعُوجَا عَلِيَّ جَعْفَرَ الْهَبَاءِ قَعُوجَةَ
دَمَاءٌ جَرَتْ مِنْهَا التَّلَاعُ بِمَلْنِهَا

لعلني أرى بآقٍ على الحدثان
فتين، وصرف الدهر ليس بفان
بشرح شباب أم هـما هـسان
ولم تطويما كشحاً على شأن
أما علما أن سوف يفترقان
من الدهر لوانٍ ولا متوانٍ
فان الغمصا في بقية شان
ولكن سلاه هل يلتقيان
شاميةً الصوت بدين يمان
على طمع خلاه للديران
بيوم تناء غال كل تداني
من الدهر لو لم تنصرم لأوانٍ
وما كان في امثالها بمهانٍ
يهجه قسبر بكمل مكان
فاودى بمجنبي عليه وجاني
لضيعة اعلق هناك ثماني
ولأنحل إلا أن جرى فرسان^(١)

وعلى الرغم من طول المقدمة التي نقلناها الا انها لم تنته بعد. فيستمر الشاعر في وصف حروب الجاهلية ومنها حروب الاوس والخزرج وماخلفته هذه الحروب من ويلات جرت المتاعب على اهلها طويلا. ويبدو ان الشاعر كان ممن يمترونون التعب في نبش هذه الاحداث التاريخية فذكر بكرًا وتغلب، وقصة المهلهل بن ربيعة وحادثته

(١) ديوانه: ص ٢٢٤-٢٢٧. وينظر تخريجات د. احسان عباس لاماكن النص ونواريخه وحدثه وشخصياته.

قتله، وقصة قبيلة عدوان وهم قوم جعل الله بأسهم بينهم فقتلوا وهلكوا. وبعد هذه الحوادث والامكنة والشخصيات والمشاهد يلج التطيلي الرثاء فيبدأ على عادة ما يبتدأ به الشعراء من ذكر مناقب المرثي، ومحامده. والتطيلي انما لجأ الى هذه المقدمة الطويلة لسببين اثنين:

الاول؛ قدم الشاعر وبصورة عفوية التسلية والتصبر لاهل المرثي عن طريق التعريف بكل هذا الموروث التاريخي الضخم من حوادث ومعارك واسماء، والذي يهتم المرثي اذ يعود -في نظر التطيلي - الى هؤلاء الذين كتبوا التاريخ وخلدوا فيه اسمائهم وماثرهم . فلتشك في ان هذه الاسماء قد جلبت لاهل المرثي الصبر، وعالجت جراحهم فالناظر الى هذا الكم الهائل من الاسماء والشخصيات في مختلف العصور والدهور لتتهون عليه مصيبتهم ويهون عليه قده. وهذا ما اراده التطيلي.

الآخر؛ ان الشاعر في هذه المقدمة اباح عن كنه مشاعره من خلال ذكر هذه الحوادث واماكنها فمن خلال هذا الموروث التاريخي الكبير يمكننا ان نشم رائحة الشكوى وضيق الحال وسوء المكان الذي يقيم فيه شاعرنا. ولذا لجأ لكل هذه المؤثرات التاريخية رغبة منه في تسلية نفسه ومواساتها . فالمكان الآني الذي تحدثنا عن سماته وخصائصه كان مكان التطيلي ومحل اقامته فلايرئى بدأ من الهروب عنه ولو لوقت بسيط عن طريق الشعر، وعن طريق التاريخ الذي كثيرا ما يسلي النفس ويزيل هموسيا. ولذا كانت أكثر الاحداث التي وردت في المقدمة تحكي غدراً كقصة المهلهل وعدوانا. أو تقصّر غربة كهرمي مصر ونخلتي حلوان، وتحدث عن حرب كحرب بكر وتغلب وعبس وذيبيان. فالتطيلي في استنطاق مثل هذه الاحداث انما حكى غرْبته، وغربة عصره، وشكواه من مكانه الذي جلب له كل هذه الحسرة والالام والبكاء.

ولم يكتفِ الشاعر الاندلسي بالمقدمة كمفصل من مفاصل القصيدة يذكر فيها الامكنة التاريخية ويشير الى رموزها ودلالاتها كما انه لم يكتف بها ايضا كبعد يحكي فيه مشاعره تجاه احداث حياته وعصره ومكانه منذ اول النص انما يعمد الى النص الشعري ككل فيجعله يدور في فلك تجاربه ويعبر عن الامه عن طريق الايحاء التاريخي. فحازم القرطاجني يستنطق هذا الايحاء عن طريق حادثة سيدنا الحسين بن علي(رضي الله عنهما) تلك الحادثة الاكثر بكاءً لمشاعر المسلمين اذا ما ذكرت والاكثر حزناً والمسأ إذا

ما عبر بها الشاعر عن فرط حزنه والمه. يقول القرطاجني ذاكرا وقعة الطف^(١):

وذكر رريم برامتين	لاتبكي حزنأ ليوم بين
الطاهر ابن المطهرين	وابن البتول الحسين فاندب
بكاء قلب ونظارين	فقا خليلي نبكي حزنأ:
فرق بين الكرى وبينني	فبان رزأ بكر بلاء.
ومن حيا المزن كل عين	بالطف يوماً بكته منأ
عليه بالصبر من يدين ^(٢)	اودئ حسين به فمالي

والقصيدة تعرض صبر الامام الشهيد، ورضاه بقدر الله - سبحانه وتعالى - ومن ثم يبكي عليه القرطاجني بالدموع المبررة، لاسيما وانه رزأ اصاب الامة الاسلامية، وجعل مصابها اليما عظيما. ولاشك في ان هذه الحادثة ماكان لتكون عارضا يذكر، او عاقبة تمر، بل؛ ستظل تذكرنا بنكبة المسلمين، ومكان حوادثهم المؤلمة، على صعيد الاندلس وغيرها. ومن هنا فالقرطاجني يستذكر هذه الحادثة؛ وفقيدها، ومكانها من واقع مكاني اني ممقوت شابه ذلك المكان وماتله في المشاعر، لما وفقدا وعظة.

وربما زادت هذه المشاعر في المبالغة بعظمة الفقد والمصاب عند يوسف الثالث، وهو الذي عانى ما عانى سجنأ وغربة وسلب حق كان من المفروض ان يحصل عليه منذ حين. يقول في رثاء الامام الحسين - رضي الله عنه -:

بدموع المرزميين	ساعدينني ياسامأ
وحسين أصل حين	كربلاء هيج كربني
لوعتني أدمع عيني	بعد صيف الطف تظفي
قدست عن كل شين	يابي منهم وجوه
وثنوا كالفردين ^(٣)	أشعروا الموت جهارأ

(١) الطف: ارض بناحية الكوفة في طريق البرية، قتل فيها الامام الحسين رضي الله عنه. ينظر: معجم البلدان: ٣٦/٤.

(٢) قصائد ومقطعات: ص ٢١٦-٢١٧.

(٣) ديوانه: ص ١٦٦-١٦٧.

ان قوله (وحسين اصل حين)، هو ما اراده من عموم النص، ومن خصوصية نظمه في رثاء الامام ورزء كربلاء. فحادثة الامام، وكربلاء كانت مركز اهتمام يوسف، وبؤرة احزان المسلمين-كما قلنا- فلاضير ان يضمها ملك مضام، سليب الحق لشعره، وان يعبر من خلالها عن حقه، وعن غدر الاشخاص الذين سلبوه منه، وعن مكانه الذي يجمع كل هذه الاشياء معاً، فيثير في نفسه كل هذا الحزن العميق، والاسى البليغ.

وقلنا انفا ان الامكنة الانية المستوحاة من اثر الامكنة التاريخية ودلالاتها لم تقف على حدود الامكنة التاريخية المشرقية. وانما استذكر الشاعر الاندلسي في العصور التي خصصناها في دراستنا: عصر المرابطين وعصر الموحدين وعصر بني الاحمر ماحدث لامته في العصور السابقة لها وما ترتب على هذه الاحداث من خراب ودمار شمل مدينة او شخصاً او شعباً. فابو عبد الله بن ابي الخصال له مسمطة يندب بها قرطبة والزهراء. وهاتان المدينتان تذكرنا بقصة الغرام التي وقعت مع الشاعر ابن زيدون في ذلك العشق الشهير.

لقد كانت مسمطة ابن ابي الخصال تذكيراً لتلك القصة، وملحاً من ملامح تكويين المكان الآني من خلالها. وعل ابياتنا منها تخبرنا عن هذا الملح بناكيد وعناية، يقول:

لست ترى ان المقام على شفى وأن بياض الصبح ليس بذي خفا
وكم رسم دارٍ للعبة قد عفا وكان حديثاً لاؤفودٍ معرفاً

فالصبح وحش المنتدئ يتحنب^(١)

انن؛ فالزهراء اطلال تبكى، وقرطبة دوارس تندب وامكنة تنتحب.

ان الشاعرين كليهما من اصحاب الوزارتين السيف والقلم، فكلاهما ينظران الى المكان من زاوية ثقافية واحدة، كما انهما شهدا انتكاسات في حياتهما. الاول (ابن زيدون) خسر عشقه الذي كان مصدراً مهماً من مصادر ادبه، وادوع السجن. والآخر (ابن ابي الخصال) خسر حياته بمقتله. ففقدت به الاندلس ادبياً كبيراً ووزيراً عادلاً. فالمكان (الزهراء) كان لابن ابي الخصال اكثر من مكان اني يعيش فيه. فقد كان

(١) الخريدة: ٤٧٢/٢-٤٧٣. وقد وردت احداث وامكنة متشابهة بين المسمطين. ينظر: ديوان ابن زيدون ورسائله. شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٢٩-١٣١: ص ١٣٤-١٣٦.

هاجسه ومحل اماله فاذا ما انتكس وقتن كان لا بد له من نبش قبور الماضين، ونجديت ذكرهم لاسيما انه يماثلهم الثقافة والادب والسلطة.

وفي قصة الغرام التي وقعت بين الوزير ابي جعفر بن سعيد وبين الشاعرة حفصة الركونية (ت ٥٨٦هـ)^(١) ما يعيد لنا -تاريخاً وادباً- قصة ولادة وابن زيدون. وما الشعر الذي قيل بينهما الا تذكرة للشعر الذي قيل بين ابن زيدون وعشيقتة. إلا ان ابا جعفر كان اكثر حظاً في حبه من ابن زيدون، لان حفصة كانت تحبه فعلاً، فكان معشوقاً اكثر منه عاشقاً، اما ابن زيدون فبالعكس كان عاشقاً اكثر منه معشوقاً فولادة كانت امرأة متعجرفة عنيدة تتصرف كأميرة حتى مع حبيبها^(٢). فالنظر في شعر ابي جعفر يرى فيه انفاس ابن زيدون والفاظه الغزلية العذبة، واما كفاء الطبيعية المألوفة. يقول ابو جعفر في جواب حفصة:

أجلكم مادام بي نهضة
عَن أَنْ تَزُورُوا إِن وَجِدْتُ السَّبِيلُ
مَالرَوْضِ زَوَاراً وَلكنمـا
بزوره هبَّ النسيمُ العليـلُ^(٣)

وفي ليلة من ليالي الوصال مع حفصة في بستان بحور مؤمل قرب غرناطة، ما يذكرنا بليالي الزهراء واحاديثها وروضها واطيارها:

(١) حفصة بنت الحاج الركونية، شاعرة ادبية من شواعر غرناطة يرجح انها ولدت سنة (٥٢٠) كانت مشهورة بالجمال والحسب رالمال، نولع بها ابو سعيد ابن عبد المؤمن ملك غرناطة. وبسببها نغم على ابي جعفر بن سعيد فقتله، توفيت على الاغلب في نهاية (٥٨٠)، ورجح انها سنة (٥٨٦). ينظر: المطرب من اشعار اهل المغرب: ص ١٠، تحفة القادم: ص ٢٤٠، المقضب من تحفة القادم: ١٦٦؛ رايات المرزبان: ص ٩٢-٩٣، المغرب: ١٣٨/٢، الاحاطة: ٤٩١/١، الشعر النسوي في الاندلس: ص ١١٦-١٢١. دراسات اندلمية في الادب والتاريخ والفلسفة: ص ٨٨-١٠٩؛ الشعر النسوي الاندلسي (ا. اراضه وخصائصه الفنية): ص ١٥٥-١٧٨.

(٢) ينظر الشعر النسوي الاندلسي (ا. اراضه وخصائصه الفنية): ص ١٦٦.

(٣) مجموع شعره: ص ١٣٧.

رعى الله ليلاً لم يرع بمذمّم
وقد خفقت من نحو نجدٍ اريحة
وغردَ قمرئٍ على الدوحِ وأنتئى
يرى الروضَ مسروراً بما قد بدا له
عشيّة واراتنا بحورٍ مؤمّل
إذا نفحتُ جاءتُ بريّاً القرنفل
قضبٍ من الريحانِ فوقَ جدول
عناقٍ وضمّ وارتشافٌ مقبّل^(١)

ان اية قصة غرام تحدث في عصرنا لا بد ان نستذكر من خلالها قصة ولادة وابن زيدون. وتذهب الذاكرة بعيداً لتستجلي احداث هذه القصة وملابساتها والشعر الذي قيل فيه، والزهراء التي احتضنت هذا الغرام وذلك الشعر. وهذا ما يتركه الشعر فينا فهو حبّ وأمل وتاريخ وحضارة.

وفي مأساة اشبيلية وسلكتها المعتمد بن عباد، وضياح ملكه وانهيار دولته ما يثير شجناً والمأ عند شاعر عاقبته الظروف، وعاش ازمة المكان الآتي الذي حلّ فيه (السجن). وشهد انكار الصديق والقريب والتلميذ كلسان الدين بن الخطيب. اذ اثارته هذه المأساة قريحة هذا الاديب الشاعر، وهو يزور اغمات^(٢) ويقف على قبر المعتد. بقول:

قد زرتُ قبرك عن طوعٍ بأغماتٍ رابتُ ذلكَ من أولي المهماتِ (تاريخي)
لِمَ لا أزوركِ يا اندئى الملوكِ يداً ويا سراجَ لليالي المدلهماتِ
وانتَ من لو تخطى الدهرُ مصرعهُ إلى حياتي اجاداتٍ فيه ابياتي
انافاً قبرك في هضبٍ يميّزهُ فتنتحيه خفياتِ التحباتِ
كرمتَ حياً وميتاً واشتهرتَ عللاً فانّت سلطاناً احياءٍ وأنواتِ
ما ربيئاً مثلكَ في ماضٍ ومعتقدي أن لا يرى الدهرُ في حالٍ وفي آتٍ^(٣) (أنسي)

(١) مجموع شعره : ص ١٢٩.

(٢) اغمات: بلدة بارض المغرب بقرب وادي درعة قريبة من مراکش. اهلها يعملون في التجارة ومدنيتهم عامرة باصناف الازهار والثمار. وهما مدينتان احدهما؛ تسمى اغمات وريكة، والاخرى: اغمات جيلانة وبينهما نحو ثمانية اميال. ينظر: معجم البلدان : ١/٢٢٥؛ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والاندلس؛ ص ١٣٣، كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار: ص ٤٥-٤٦.

(٣) ديوانه: ص ٣٣٨-٣٣٩.

ان القطعة بالغة الاسى واللوعة والالم . ان ابن الخطيب انما اراد ان يخلد المعتمد واغمات والقبر وهو المؤرخ الثبت وعن طريق هذا التخليد، وعن طريق هذا المكان (القبر) اراد الشاعر المنكوب ان ينفث سموم شكواه، وان يبادل المعتمد الهموم التي اوّعت به وكتبته القيود وماتت به في السجن وحيداً شريداً، وقد كان الملك الفارس الشجاع الجواد.

ان المكان الآني يستحضر من خلال هذا المكان التاريخي، ومن خلال هذه الثيمة المكانية المعادية (القبر) اذ لافرق بينها وبين سجن ابن الخطيب من حيث المشاعر والعواطف والانفعالات، فالمكان التاريخي هنا شاهد عظة واعتبار اودعه ابن الخطيب ابياته ليبوح من خلاله عن شكوى دفينه، وعن حال متالم بالك، فالمكان التاريخي يكتب في النص الشعري (حضوراً فاعلاً فهو من جانب يمنح النص بُعداً شاملاً بانفتاحه على التراث والتواصل مع الماضي، ومن جانب اخر فان الشاعر يمنح المكان التاريخي القدرة على التجدد والافلات من اسر الزمن بالخروج من دائرة الماضي والحضور المتواصل عبر النص الشعري)^(١).

٢.١٢ ادب الاستنجد تجسيد للمكان الانبي عند الشاعر الاندلسي.

عاشت الامة الاندلسية سلسلة طويلة من النكبات والمآسي من وجوه حياتها المختلفة في الاندلس فمنها النكبة الاقتصادية بضياع تلك المدن الغنية بارضيا وزرعها وخيراتها، ومنها النكبة السياسية وما تبعها من سقوط الحكام وضياع السلطة وانتشار الفوضى والفساد الاداري حتى في المناصب الدينية كخطة العدل والنضاء وادارة المساجد، ومنها النكبة الدينية وعلها اشد انواع النكبات التي مرّ بها الانسان الاندلسي وهو يفقد دينه الذي جاء من اجل نشر مبادئه الى هذه البلاد، ويفقد اماكن عبادته في بلنسية واشبيلية وغرناطة مرغما مذعنا. وبحلول هذه النكبات في ذلك الشعب المسلم المحافظ، فقد الاندلسيون كل شيء، فنواياهم الدينية التي جاوا من اجلها لفتح هذه البلاد، ودعوة اهلها لدين الاسلام الحنيف قد تغيرت، كما ان قواهم وعرائمهم التي تتبع من تلك النوايا الحسنة الصادقة قد تبديلت، فلاحقت الترف المادي وشهدت الاسراف الاقتصادي. ومن ثم فدفاعهم الذي يأتي عن تلك القوة قد تلاشى وانسى.

(١) المكان في الشعر العراقي الحديث: ص ١٣٧.

فاحتل العدو ارضهم، واعلن طردهم، واذاع هزائمهم التي اصبحت ماضيا مؤلما. وفقدنا عزيزا لحضارة وتاريخ بناه العرب واعزه الاسلام ونصره.

(لقد تتبع الشعر الاندلسي هذه المحن والنكبات كلها، مسجلا مراحلها، مخلدا شعور الاندلسيين فيها، معبرا بالدمع والدم عن تلك الاحساسات العميقة الصادقة التي كان يشعر بها الانسان الاندلسي تجاه الارض ومعالم الدين والحضارة والفكر، في تجربة انسانية قل نظيرها في ادبنا العربي القديم)^(١)

ولم يخلُ هذا التتبع من خوف على مصير الامة الاسلامية في الاندلس، ومن نقد للاوضاع التي قد تحيل تلك الاصقاع البهية الى اماكن مقفورة، لا نرى فيها الا ما يبكي ويؤلم (وقد بدأت اولى صيحات التحذير مع بداية بوادر التمزق الذي اصاب المجتمع الاندلسي، باندلاع الفتنة التي اجتاح عاصمة الخلافة (قرطبة سنة ٣٩٩هـ). حدث حذر احد شعراء قرطبة انذاك مواطنيه من هذا التمزق وانبأهم -ان لم يتداركوا امرهم- بمستقبل قائم لا ينجو من التردي في ظلماته احد)^(٢). يقول:

اضعتكم الحزم في تدبير أمركم ستعلمون معاً عقبى البوار غدا
فلو رأيتم بعين الكفر حالكم بكيتم دماً ان دمتكم أبدا
كن سبيل العمى أعمت بصائرکم فالبسئتم ثياباً للبلوى جُدداً^(٣)

ورافق هذا الخوف تعريضا بملوك المسلمين واولى امرهم. اذ عدّهم بعض الشعراء أول من اورد تلك الامة الموارد، وادار عليها الفتن، وسهل وسائل العدو من النيل منها ومن اهلها. ويقول السمسير الالبيري (ت ٤٨٨هـ) في ابیات مُعرضاً نبؤ لاء الملوك:

(١) الاصوات النضالية والانيزلمية في الشعر الاندلسي: الطريفي احمد عراب، مجلة عالم الفكر - الكويت، ص ١٢، ١٤، ١٩٨١، ص ١٣٢.

(٢) الشعرى الاندلسى والتصدي للانييار: د. الربيعى بن سلامة. محلية قسنطينة - الجزائر، ص ١٦٠، ١٩٦٥.

(٣) البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب: ١/١١٠.

نَادِ الْمُلُوكَ وَقُلْ لَهُمْ
أَسْلَمْتُمْ الْإِسْلَامَ فَمَنِي
مَآذَا السُّذَى أَدْعَتْكُمْ
أَسْرَ الْعَبْدِي وَقَعَدْتُمْ
إِذْ بِالنَّصَارَى قَمَتُمْ
فَعَصَا النَّبِيِّ شَقَّتْكُمْ^(١)
وَجَسَبَ الْفَيْصَامُ عَلَيْكُمْ
لَا تَنْكُرُوا شَقَّ الْعَصَا

(فالإبيات وان غلبت عليها صبغة النثر، فإنها على الأقل تعكس هذا الإحساس الصادق الذي كان يعتمل في ضمير الأمة تجاه هؤلاء الملوك)^(٢)

وما اكتفى السميسر بالتعرض بهم، بل ستمهم وسخر منهم- وهو الساخر السيكم- ونعتهم بالخيانة وانهم اهانوا فهانوا، فهم تحت كل تحت، ودون كل دون. وهو ربح عاد التي تجلب لقومها كل نحس وبؤس^(٣) ومن هذا المنطلق كان السميسر آخر شعراء ملوك الطوائف جرأة وحيرة في نقد الأوضاع التي آلت اليها الاندلس في ظل أولئك الملوك. فكم فضحهم، واذاع فسادهم، وعرى اسلوب حكمهم المتسخ^(٤).

وما سمع احد لتعريض السميسر وما سمع أولئك القائمون على اسانات المسلمين نصيحة احد فتمادوا في غيهم ووصل الامر ببعضهم ان يستجير بملوك الاسبان لمحاربة اخوانهم حتى ضاعت المدينة تلو المدينة والمكان بعد المكان حتى وصل الامر لغرناطة التي ضاعت هي اخرى فكانت اخر معاقل الاسلام هناك، واخر كلمة العرب في الاندلس.

و الشاعر الاندلسي على مرأى ومسمع من هذه الاحداث . فسخر سخره ليكي ويستصرخ ويستجد ملوك المغرب لتدارك امر المسلمين في مدن الاندلس. وانقادهم من ذلك العدو الباطش الجبار الذي مازال يتقدم ويخرب ويبيد، وفي كل هذا الشعر نرى سمات المكان الانبي الذي يستصرخ له الشاعر مرة بالرتاء وثانية بالنقد والتعريض:

(١) السميسر الالبيري (حياته وشعره): د. حلمي ابراهيم الكيلاني، مجلة مؤتة -الاردين. ص: ٧، ١٤، ١٩٩٢. ص ١٤٨.

(٢) الاصوات النضالية والانهازامية في الشعر الاندلسي: ص ١٣٤.

(٣) ينظر : السميسر الالبيري (حياته وشعره): ص ١٤٠، ١٥٠، ١٥١.

(٤) ينظر: مدخل الى الادب الاندلسي: ص ١٢١-١٢٢؛ الاصوات النضالية والانهازامية في الشعر الاندلسي: ص ١٣٥.

وهجاء جيش العدو والنيل من جنوده، وثالثة بيت تعاليم الاسلام، ريبث الروح السمرية للجيش الاسلامي الذي يرباط في سبيل الدفاع عن ارض المسلمين وكرامتهم ومحارمهم. ابو جعفر الوقشي (ت ٥٧٤هـ)^(١) يقصد مراکش ويمدح الامير ابا يعقوب بن عبد المؤمن بقصيدة فريدة، يتعرض في مقدمتها لحال الاندلس وحال اهلها، وما حل بهم من نكبات ومحن يقول:

فحسقٌ لدمعي أن يفيض لأزرقٍ تملكَ دعجاءَ المدامع سُردا
وبالهِفَ نفسي من معاصم طفلةٍ تجاورُ بالقيدِ الأليمِ النُهودا
وأها أمدُ الصوتِ منتحباً على خلو ديارٍ لو يكونُ مفيداً
لعلَّ أميرَ المؤمنين يعيدها الي أفضل من حالها فتعسودا
حملتُ إليه من نظامي قلادةً يلقبها أهلُ التلامِ قصيداً
غدتُ يومَ إنشادِ القريضِ وحيدةً كما قصدتُ في المعلواتِ وحيداً^(٢)

هل نرى كيف حمل الشاعر ارهاصات المكان الذي يعيش فيه إلى مكان اخر؟ وهل نرى اثر الظروف الآنية التي جعلت المكان مثيراً للدموع، مبكياً لرحمة لكل من يسمع القصيدة؟ فتهب في نفسه مشاعر الغيرة، وتلتهب في حفيظته دوافع النجدة والاعانة لهكذا حال.

ان المكان هو الذي اثار مشاعر الوقشي، ودفعه لنظم النص وحله لوحيد عاصم وقائد زمانه على يسلُ السيف ويطرد الغاصب المعادي. وعلى الرغم من ان سمات الاستجداد لم تظهر فيما مثلنا به من ابيات الا انها كشفت بعمق واضح عن المكان الآني الذي يعيشه اهل الاندلس اليوم، فكيف كان فيما مضى وكيف سيكون في المستقبل؟! واذ عدنا إلى الجزء الباقي من القصيدة وفيها يتخذ المضمون الموضوع عي بُعداً جديداً إذ يركز على أهل الشرك والشر (العدو الاسباني)، يرى الوقشي انه لا سبيل لانقاذ

(١) احمد عبد الرحمن الوقشي، تردد على مائة كثيرا. كان من بيت جلاله وحسب شبيراً سري الهمة اديباً فاضلاً شاعراً مطبوعاً. كتب بديان لابي اسحاق بن همشك فلما توفي قصد مراکش ومدح الامير بالقصيدة التي استشهدنا سنة (٥٦٤هـ). ينظر: تاريخ المن بالامانة: ص ٤١٦، الحلة: ٢٠٧/٢. السجيب في تلخيص اخبار المغرب: ص ١١٥٠. المغرب: ٥٢/٢، البيان المغرب: ٣٩/٣، الاحاطة: ٢٠٥/١، فتح انطيب: ٢٧١/٥.

(٢) الذيل والتكملة: ١٩٨/١.

الاندلس الا بالقضاء على مركزهم في (سنتت ياقب)^(١). حيث كبيرهم وعميدهم وبؤرة قوتهم يقول:-

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَمُدُّ لِي الْمَدَى فَأَبْطُرُ حَفْلَ الْمُتْرَكِينَ طَرِيدَا
وَهَلْ بَعْدُ يَقْضِي فِي النَّصَارَى بِنَصْرِهِ تَغَادِرُهُمَ لِلْمَرْهَفَاتِ حَصِيدَا
وَيَغْزُو أَبُو يَعْقُوبَ فِي سَنَتِ يَاقِبَ يَعِيدُ عَمِيدَ الْكَافِرِينَ عَمِيدَا
وَيَفْتِكُ مِنْ أَيْدِي الطَّغَاةِ نَوَاعِمًا تَبْدُلُنَّ مِنْ نَظْمِ الْحَجُولِ قِيودَا^(٢)

(لقد ادرك ابو يعقوب حتما بان الجزيرة محتاجة الى فتح جديد فعليه ان يعد العدة للجهاد الاكبر والطويل ليعيد به الاسلام صفحته المجيدة)^(٣). وبدا تكون اشعار الوقشي وغيره^(٤) قد آتت أكلها وأينع ثمرها ونضج اذ لقت اذنأ مصغية ونفساً غبورة على مقدسات المسلمين ومعتقداتهم واطنانهم ودمانهم.

ومن الشعراء الذي ولجوا باب الاستجداد. وجسدوا المكان الآني من خلال هذا الباب ابن سهل. فله قصيدة استصرخ فيها العرب للجهاد في الاندلس سنة ٤٠٠هـ. استهلها بقوله:

وردأ فمضمونُ نجاحِ المصـدرِ هي عزةُ الدنيا وفوزُ المحشـرِ
نادئُ الجهادِ بكم لنصـرِ نبيكم يبدو لكم بينَ العتـاقِ الضـمـرِ
خَلَّوْا الدِيَارَ لِدارِ مَلِكٍ وَأَرْكَبُوا غَمَرَ الْحِجَاكِ إِلَيْ النِّعَمِ الْأَخْضَرِ
وَتَسَوَّغُوا كَدَرَ الْمَنَاهِلِ فِي السَّرِيِّ تَرَوُوا بِمَاءِ الْحَوْضِ غَيْرَ مُكْدَرِ
وَتَجَشَّمُوا الْبَحْرَ الْأَجَاكِ فَاثْبَتَهُ سَبَبٌ بِهِ تَرْدُونَ نَهْرَ الْكُوْثَرِ^(٥)

ويستمر ابن سهل في اغراء المستغاث بهم بتعداد مزايا الجهاد. وما اعده الله للمجاهدين في سبيله من نعم وجزاء، بما يستحق به الفخر في الدنيا والاخرة. وهو يؤكد هذه الاستمرارية بجعله السيوف مغمودة فلم ترفع في سبيل الحق، والخيال مرابطها ضجرة

(١) سنت ياقب: (كنيسة عظيمة في ثنور ملردة). الروض المعطار: ص ٢٤٨.

(٢) الذيل والتكملة: ١٩٨/١/١-١٩٩.

(٣) الاصوات النضالية والانضمامية في الشعر الاندلسي: ص ١٣٩.

(٤) ينظر: تاريخ المن بالاسامة: ص ٤٣٦-٤٤١؛ المعجب في تلخيص اخبار العرب: ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٥) ديوانه: ص ١٥٧-١٥٨.

ترديد الجهاد والرباط ضد من غيروا معالم الدين وعطلوا سنن النبي (صلى الله عليه وسلم):

والكفرُ ممتدُّ المطالعِ والهُدَى
البيضُ تفلقُ في الغمودِ مضاضةً
والخيلُ تضجُّ في المرابطِ حسرةً
كَمْ نَكْرُوا مِنِّ مَعْلَمٍ، كَمْ دَمَّرُوا
كَمْ عَطَّلُوا سَنَنَ النَّبِيِّ وَعَطَّلُوا
متمسكٌ بذنابِ عيشٍ أخضرٍ
للحقِّ، إذ تَلَقَّى يَدُ الْمَسْتَصْفِرِ
أَنْ لَا تَجُوسَ حَرِيمَ رَهْطِ الْأَصْفَرِ
من معشرٍ، كَمْ غَيَّرُوا مِنْ مَشْعَرِ
مِنْ حَلِيَّةِ التَّوْحِيدِ صَهْوَةَ مَنْبِرِ^(١)

وعلى شاكلة هذه الابيات يبين ابن سهل المصائب التي وقعت في بلاد الاندلس والرزايا التي اكتنفت اهلها، ولا شك في ان الاستفهام الانكاري الخارج لمعاني التهويل والتعظيم اسبغ على ابياته جسامه الموقف، ومصاعب الحال التي يمر بها المسلمون في تلك البلاد سنة (٦٤٠).

لم ييأس الشعراء ولم تعرف نفوسهم الشامخة الابية الاستسلام. على ان الوضع الجديد لبلاد الاندلس في القرن السابع الهجري كان اكبر من ان يوصف. فقد كثرت الاعتداءات واحدقت بالامة المسلمة الولايات والمخاطر من كل حذب وصوب، واخذت المدن تتساقط تباعا، واهلها يجبرون على تركها وبقي الشاعر امام كل هذه الولايات في خوف وامل يسعى في شعره لاستنهاض الهمم وطلب النجدة ممن يتناسر فيهم زوال سدته وتقريج كربته^(٢).

فقام ابن الابار الاديب الاريب، الشاعر ذو الحس الوطني الصادق الخالص يستجد بانباء الدولة الحفصية بقصائد قل نظيرها في الادب العربي مشاعرا ونسجا وصنعة، يضع ابن الابار بين يدي امراء هذه الدولة ماساة اخوانهم في الاندلس. ويشكو لهد ما يلاقون من لآواء مصيبة وضعت. يقول مستجدا مستغيثا للاندلس من قصيدة انشدها بين يدي الامير أبي زكريا الحفصي في تونس:

(١) ديوانه: ص ١٦٠.

(٢) ينظر: ادب الاستجداء في الاندلس من القرن الخامس الهجري الى القرن التاسع الهجري: بين يوسف مصطفى (رسالة ماجستير)، كلية الاداب في الجامعة المستنصرية، ١٩٨٥، ص ٥٦.

نادتك أندلسٌ فلبَّ نداءها واجعلن طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاحبها من عاطفاتك ما بقي حوباءها
واشدد بجلبك جرد خيلك أزرها تردد على اعقابها أزرها^(١)

يبدأ ابن الأبار النص بذكر المكان الآتي (الاندلس) متيحاً لنفسه الاطالة في وصف مآسي هذا المكان ومعاناة اهله وهم يواجهون عدوا يفوقهم في الكثرة والسلاح. ويفوقهم من حيث الروح المعنوية التي تنازلت كثيرا في جيش المسلمين بينما هي مرتفعة في جيش عدوهم لكثرة المدن التي احتلوها وسعيهم الحثيث لاحتلال ما بقي منها في حوزة المسلمين. واذ يركز ابن الأبار النداء لقائد الحفصيين واميرهم وذروة كلامهم. فانه لا ينسى الحفصيين عموماً، فالحفصيون هم امل الاندلس الوحيد الذين يحطمون الاعداء ويكسرون شوكتهم، ويعيدون للمسلمين كرامتهم التي اريقت وبلادهم التي ضاعت:

واستدع طائفة الأمام لغزوها تسبق إلى امثالها استدعاءها
أرسل جوارحها تجنك بصيدها صيداً وناد اطنحها ارجاءها
هبوا لها يامعشر التوحيد قد أن الهوب وأحسرزوا عليهاها^(٢)

ولا يكف ابن الأبار عن تذكير الامير الحفصي بمسؤوليته تجاه الاندلس ناعياً اياها بانها داره القصوى، ومسؤوليته تجاه اهله، واصفاً لهم بانهم عبيده وهو المولى الرحيم المجيب لداعي النصر. وهو بذلك لا يترك عنصراً من عناصر التأثير الا ويأتي به خدمة لموضوع النص الاساس:

وهذي دارك القصوى أوت لا ياله ضمننت لها مع نصرها ايواءها
وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى سبل الضراعة يسلكون سواها^(٣)

وعلى اكبر عناصر التأثير هي الحديث عن تلك المعاهد وكيف احتلتها العدو. ومفاعل في تلك الربى والاباطح، وكيف نسخت النداءات بنواقيس الصليب، وكيف سمع شدر الوراق، فعظم نواحيها وبكاءها:

(١) ديوانه: ص ٣٣.

(٢) ديوانه: ص ٣٥-٣٦ الايات بتصريف.

(٣) م.ن: ص ٣٣.

ايه بلنسية وفي ذكراك ما
 كيف السبيل إلى احتلال معاهد
 وإلى ربي وأباطح لم تعز من
 طاب المعرس والمقيل خلالها
 بأبي مدارس كالطول دوراس
 ومصانع كسف الظلال صباحها
 راحت بها الورقاء تسمع شدوها
 عجباً لأهل النار حلوا جنّة

يُمري الشؤون دماءها لأماءها
 شب الأعاجم دونها هيجاءها
 خلع الربيع مصيفها وشئاءها
 وتطلعت غرر المنى اثناءها
 نسخت نواقيس الصليب نداءها
 فيخاله الرائي إليه مساءها
 وغدت ترجع نوحها وبكاءها
 منها تمد عليهم أفياءها^(١)

انها لوحة تفيض شجاعة وتبكي دماً، انها الفاظ تنس شغاف القلوب فتنتيك اسرارها ،
 وتخاطب العقول فتلزما الحجة، فلا يجد المرء نفسه الا وهو يفيض دمعاً وحسرة وبكاء،
 (ان الفكرة المهدوية التي عبر الشاعر عنها من خلال الابيات هي الفكرة التي قامت
 على اساس الدولة الموحدية في المغرب ، و اعتبر الحفصيون انفسهم ورثة هذه الدولة
 الحقيقيين، بعد استقلالهم بتونس، ونرى ابن الابار يضيفها على شخص الملك الحفصي
 ابي زكريا، فهو الملك الامام الذي سيحرر الاندلس ويقضي على اعداء الاسلام)^(٢):

هذي رسائلها تُناجي بالتي
 بشرى لأندلس، تحب لقاءه
 وقف على ريثها ونجاءها
 ويحب في ذات الاله لقاءها
 يشفي ضناها أويعد رواءها^(٣)

ونقف في شعر ابن الابار على اشهر قصيدة قيلت في ادب الاستجداد في الشعر الاندلسي،
 وهي من حيث بناؤها الموضوعي في تصوير حال المكان الأني (الاندلس) رطلب النجدة له
 تعد القصيدة الثانية في الشهرة والتداول بين ابناء الاندلس بعد نونية الرندي. تلكم هي سبنيته
 التي قال عنها المقرئ: (فضحت من باراما ، وكبا دونها من جارها)^(٤). يقول مطلع هذه
 القصيدة التي كثيراً ما تتردد في كتب الباحثين والمؤلفين والنقاد ومؤرخي الاندلس:

(١) ديوانه: ص ٣٤.

(٢) الاصوات النضالية والانهاوية في الشعر الاندلسي: ص ١٤٢.

(٣) ديوانه: ص ٢٧. الابيات بتصرف.

(٤) نفع الطيب: ٤/٥٧٤.

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً إنَّ السبيلَ إلى منجاتِها دَرَساً^(١)

وقد وقف أولئك الباحثون والناقدون الفضلاء من هذه القصيدة موقفين اثنتين:

١. اصحاب الموقف الاول: يعدون هذه القصيدة من القصائد التي قيلت في رثاء المنمن والمماليك التي سقطت ايام الشاعر.^(٢) ويعود السبب في موقفهم هذا بحجة ان اغلب ابيات القصيدة تصور حالة الاندلس ، وبلنسية (مدينة الشاعر) خاصة ، وما اصابها من دمار وتخريب بعدما عاثت يد الاعداء في جناتها مستيحية مفاتنيا بما يجعل النفس تنقطع اما وحسرة .

٢. اصحاب الموقف الثاني: يعدون هذه القصيدة قيلت في الاستجداء ، الاستصراخ لانقاذ الاندلس وبلنسية من ايدي الطامعين الحاقدين.^(٣)

ويرى اصحاب هذا الرأي في تلك اللوحات والمقاطع التي تصور نصاب الاندلس بفقد بلنسية، وبكائهم عليها انها من سبيل التأثير في نفس الامير الحفصي، وتخفيفه على تحرير تلك المدينة واعانتها لحصن الاسلام والمسلمين.

واذا عدنا الى النص الشعري وجدناه لا يختلف في معانيه وافكاره عن معاني النص الذي استشهدنا بابياته سابقاً، بل؛ وتكررت حتى بعض الكلمات والعبارات في النصين، ولاسيما اللوحة المتعلقة برثاء بلنسية، او تلك التي تخص مدح الامير الحفصي -التي اطال فيها- وهو قائم على تبني الفكرة المهدوية التي اسلفنا فيها القول. (الشاعر يحث الممدوح الحفصي على انقاذ بلنسية، ويخبره انها وما يتبعها صارت في بيعته ودمته فليدافع عنها، ولينقذ بلدة مسلمة واهلها الذين سيتعرضون الى ما عهده

(١) ديوانه: ص ٣٩٥.

(٢) ينظر: الادب الاندلسي في عصر الموحدين: ص ١١٣؛ الادب الاندلسي: موضوعاته وفنونه: ص ٥٢٣، الادب الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص ٣٢٠؛ الرثاء في الادب الاندلسي: حسين يوسف حسين خريوش (رسالة ماجستير)، كلية الاداب في جامعة القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٦٠-١٦٤.

(٣) ينظر: الشعر النسموي في الاندلس: ص ٣٤، دراسات اندلسية في الادب والتاريخ والفلسفة: ص ٢٩٥-٣٠٦، عصر الدول والامارات: ص ٣٨٥؛ الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ٣١٣؛ مدخل الى الادب الاندلسي: ص ١٤٢، في الادب الاندلسي (الدالية): ص ١٦٦-١٦٧؛ ادب الاستجداء في الاندلس: ص ٨٥-٨٨، شعر ابن ابيبار -دراسة فنية- بشيرى عبد عطية (رسالة ماجستير) كلية الاداب في جامعة بغداد، ٢٠٠٠: ص ١٠٣-١٠٤.

الاندلسيون من اعدائهم قتلاً وسبياً وتشريداً واحراقاً، ويصور له الخدر بكل بشاعته اذا لم يستدرك البلاد والناس معا^(١)

وعلى الرغم من التشابه والتماثل بين النصين فناً وموضوعاً، الا اني ساقبتس النص المتعلق بلنسية من سينية ابن الابار لنرى سمات المكان الأنبي عن طريق الاستجداد، يقول ابن الابار:

وفي بلنسيةٍ منها وقرطبةٍ
مدائنٌ حلها الإشراكُ مبتسماً
وصيرتها العوادي العابثاتُ بها
فمن دساكرَ كانت دونها حرساً
بالمساجدِ عادت للعديئِ بيعاً
لهفي عليها إلى استرجاعِ فانتها
ماينسفُ النفسَ أو ما ينزفُ النفسا
جدلانَ وأرتحلَ الايمانَ مبتنسا
يستوحشُ الطرفُ منها ضعفَ ما أنسا
ومِن كناسِ كانت قبلها كُنسا
وللنداءِ غدا اثناءها جرسا
مدارساً للمثاني اصبحت درسا^(٢)

وما ان سمع الامير ابو زكريا الحفصي ابن الابار لقصيدة ابن الابار حتى جئى جيز اسطولا ضخماً لتحريرها، ولكن بلنسية كانت قد استسلمت قبل وصول ذلك الاسطول، وسقطت تلك البلدة وما حولها بيد الاعداء إلى الابد^(٣).

إلا ان ابن الابار لم يتوقف عن البكاء على بلنسية واهلها حتى بعد سقوطها بنفسر العاطفة القوية التي كان يستجد لها، وبصرخاته المبكية وحبه الكبير لوطنه الذي ظل ملازماً لقصائده على امتداد ايام حياته، كقوله:

أن يكن طاعية الروم بغى
لم يكذ لو كان يدري غيره
عزه البعد عن قارب يرى
فظمى الهند لآه بالمرصد
في محاباة هوئ لم يكدر
جزية الكفر تؤدنى عن يد^(٤)

(١) في الادب الاندلسي (الداية): ص ١٦٧.

(٢) ديوانه: ص ٣٩٦.

(٣) ينظر: عصر المرابطون والموحدين في المغرب والاندلس: ص ٤٤٤-٤٥٠، التاريخ الاندلسي من الفتح

حتى سقوط غرناطة: ص ٤٧٣.

(٤) ديوانه: ص ١٥٢.

ونظم قصيدة بين المدح والاستجداء بمناسبة بيعة اشبيلية وسبته لابي زكريا الحفصي واعانته لشرق الاندلس:

لأندلس البشري وحضرتها حمصٌ فقد كُسميت للأمن ففضاضة قمص^(١)

وفي بيعة اهل سبته:

قضى صادق الآثار في امرك الأرضي بأن تملك الدنيا وأن تترك الأرض
وأجري إلى اسعادك الماء والثرى فدونك بسطاً للسبطين أو قبضاً^(٢)

ومن هنا يعدّ ابن الأبار من أبرز شعراء الاندلس الذين استجدوا وبكوا وتألّموا بلبلادهم فهو (بحاول في في كل مناسبة اظهار مشاعره الوطنية امام ملوك بني حفص، وحبّه الشديد للارض والمدن والمقدمات التي يعيث بها العدو كما يشاء. ويحث الحفصين على استرداد الاندلس وبعث معالمها للدراسة)^(٣) ومن هنا (كان ابن الأبار بحق شاعر الوطن الاندلسي)^(٤).

لقد بقيت (القصيدة الشعرية ترافق المحنة في كل صورها وابعادها. فسهي تخلد شعور الأمة في حزن والم وبكاء وتسجل انفعالاتها واحساساتها في كل وقت وحين... وقد اشتد اوارها في اواخر حكم الموحدين وبصفة خاصة بعد معركة العقاب المشؤومة وذلك حينما تجهم الافق وتقطب جبينه، وبدا للاندلسيين ان كل ينذر بالسقوط والانهيار)^(٥)، وربما بدا هذا النذير واضحاً في قصيدة ابي اسحاق ابراهيم بن عديس (ت ٦٥٩ هـ)^(٦) التي يستجد فيها بابن الأحمر لانقاذ مدينة جيان^(٧)، وفي هذه القصيدة تتثال الثيمات المكانية (المدن) انثيالاً يضع امام السلطان المناشد الحجة بضرورة التحرك

(١) ديوانه: ص ٣٣٥.

(٢) م. ن: ص ٢٤٥.

(٣) الاصوات النضالية والانتمائية في الشعر الاندلسي: ص ١٤٥.

(٤) شعر ابن الأبار - دراسة فنية - ص ١٠٧.

(٥) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ٣١٠.

(٦) من شعراء بني الأحمر في زمن الخليفة محمد بن يوسف، ينظر: الاحاطة: ٣٦٧-٣٦٨.

(٧) مدينة بالاندلس بينها وبين بياسة عشرون ميلاً... ينظر: الروض المعطار: ص ١٨٢.

السريع لانقاذ هذه المدينة ولاسيما ان هذا السلطان من اصحاب النخوة العربية الاصيله،
ومن الاسود التي تحي الحمى، وترعى الذم، يقول ابن عديس:

أُمِيرُ الْمَسْلَمِينَ أَلَا تَعْسُودُ لَأُنْدَلِسَ بِهَا مَرَضٌ شَدِيدُ
وَأَنْتَ طَبِيبُهَا وَاللَّهِ يَشْفِي فَمَا لَكَ لَا تَطِيبُ وَلَا تَعُودُ
فَجِيَانُ تَنَادِيكَ: ابْنَ نَصْرِ أَلَا مَا لَ يَعُودُ إِلَّا جَنُودُ
وَأَنْتَ مَلِيكُهَا الضَّرْعَامُ تَدْعُو لِنَصْرِ الدِّينِ لَوْ نَفْسٌ تَجُودُ
حِمَى جِيَانِ يَا سَفَا لَأَبْنَ نَصْرِ وَهَلْ يَحْمِي الْحِمَى إِلَّا الْإِسْرُودُ^(١)

لقد عاش الشاعر في ظروف عصيبة وشاهد تمزق اراضي البلاد وانحسارها يوما بعد
يوم، فهو خائف على مصير المدن الاخرى ان تقع في يد الاعداء، وان يتوول إلى
المصير الذي آلت اليه قرطبة وابذة غيرهما، يقول وقد بدا المكان الآتي الذي يتحدث
مفزعاً مذموماً:

وَقَرطِبَةُ أَقَامَ الشَّرْكَ فِيهَا وَمَا يَغْزُو الْقَرِيبُ وَلَا الْبَعِيدُ
وَأَنْ تَغُورَهَا وَتُغُورَ حِمَصٍ تَمَلِكُهَا الْعَدُو - لِنَا - الْمَبِيدُ
وَأَبْدَةٌ يَعِيْتُ بِهَا النَّصَارَى وَنَارُ الْكُفْرِ لَيْسَ لَهَا خَمُودُ
وَهَلْ بِيَّاسَةَ إِلَّا بِيَّسُوسٍ فَطُبَّ صَدْرًا إِذَا طَابَ السُّورُودُ
وَمَا قِيَجَاظَةُ تُرَكَّتْ شِكَاةٌ وَيَشْكِيهَا مَهْنَدٌ مِمَّنْ يَسُودُ
وَشُوذُرٌ ثُمَّ مَرْتَشٌ لَوْتَرَاهَا وَنَارُ الْكُفْرِ يَضْرُمُهَا الْيَهُودُ^(٢)

وبعد لوحتي الاستنجد والبكاء جاء القسم الاخير من النص و(هو نفس صوفي طويل
حيث التجأ ابن عديس الى الله يشكو، ويدعو ويرجو ويتفجع مستمطراً رحمة الله
ولطفه ونصره لينفذ مسلمي الاندلس من هذه المحنة التي ضيعوا فيها كل شئ الا لاسل
في رحمة الله ولطفه)^(٣) فلنتأمل هذه الابيات:

(١) قصيدة ابن عديس: عبد القادر زمامة، مجلة المناهل - المغرب، ٢٦٤، ١٩٨٣، ص ٢٩١.

(٢) المصدر نفسه. المدن التي وردت في الابيات هي من اعمال جيان، او من المدن القريبة اليها، ينظر:

الروض المعطار: (ابذة) ص ٦، (بياسة) ص ١٢١، (شوذر) ص ٣٥١، (قيجاظة) ص ٤٨٨.

(٣) م:ن : ص ٢٩١.

إله العالمين إليك يشكو
فأنت المستجيب لمن دعاه
فنصرأ يا إله الخلق نصراً
ولطفأ بالجزيرة يا الهي

فقير لا يقوم لسه فعود
وكل الجند جنديك كأجيد
فأنت الله تفعل ما تريد
فما إن في مضرتها مزيد⁽¹⁾

اما الرندي ، فما ان وصف المشهد المأساوي لمدن الاندلس، وبكى ذلك الانبيار الرهيب، والتضييع والاهمال الذي لحق تلك المدن، حتى وصل الى لوحة الاستجداد. وفيها يستجد باهل العدو من المغرب وما ورائه، يحثهم على القيام في سبيل اغتة المسلمين ويبعث فيهم الهممة، ويدعوهم لنبذ التدابر والتقاطع الذي يزيد الموقف سوءاً، ولا يخدم الا الاعداء ويحمسهم على المضي لقتل وسفك دمايتهم وابانتهم. يقول:

يساراكبين عتاق الخيل ضامرة
وحاملين سيوف الهند مرهفة
ورائعين وراء البحر في دعة
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم

كانها في مجال السبق عقبان
كانها في ظلام النقيع نيران
لهم بأوطانهم عز واطمان
أسرى وقتلى فما يهتز أنسان

واتم يا عباد الله اخوان
أما على الخير انصار واعوان⁽²⁾

وادر القرطاجني⁽³⁾ بعض ابيات مقصودته في استجداد اهل تونس. وحث الحفصين لتحرير الاندلس وتخليص اهلها مما هم فيه، فهو واجب من واجباتهم، وفرض فرضه الله- سبحانه- عليهم. مستغلاً في ذلك وسائل التأثير الموضوعية (الدينية والاجتماعية)، والفنية (اللغة والصورة) التي لاتخرج كثيراً عما قدمنا في قصائد ابن البار والرندي.

(1) قصيدة ابن عبيد: ص ٢٩٢.

(2) مجموع شعره: ص ٧٢٦-٧٢٧.

(3) ينظر: قصائد ومقطعات: ص ٦٨.

مالك بن المرحل السبتي (ت ٦٩٩ هـ)^(١) لا يكتفي بالصراخ والبكاء والعيول فحسب وإنما ينظر الى القضية كقضية دينية شرعية. فعلى الدين تقوم كل العلائق التي اشرفنا اليها سابقا، وعلى معالم الاسلام ومبادئه كانت غزوة الحاقدين وتكالب المعتدين، وتهدف الطامعين. هاكها مستتصراً لهذه العلائق والمعالم:

أَسْتَصِرُّ الدِّينَ بِكُمْ فَأَسْتَقْدِمُوا فإناكم أن تسلموه يسلم
لا تسلموا الإسلام يا أخواننا وأسرعوا لنصره والجموا
لاذت بكم اندلس ناشدة
فاسترحمتكم فارحموها أتته
ماهي إلا قطعة من أرضكم وأهلها منكم وأنتم منهم^(٢)

ثم يذكر الاندلس بخصالها وشمائلها الطيبة العامرة، ويمضي ليضع المستغاث بهم امام هذه الشمائل، فلا ينسى قرطبة وبكاءها، واشبيلية وشكواها، يقول ابن المرحل:

لهفاً على أندلس من جنّة دارت بها من العدا جهنم
استخلص الكفار منها مدناً لكل ذي دين عليها يندم
قرطبة التي تبكي لها مكة حزناً والصفاء زمزم
وحمص هي أخت بغداد دوماً أيامها إلا الصبا والحلم
استخلصوها موضعاً فموضعاً وأقتدروا وأحتكموا^(٣)

(١) ابو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن بن فرج بن ازرق بن سالم بن فرج. ابن المرحل المالقي المصمودي نسباً، السبتي بلداً القاسمي مدفنأ، ولد بمالقة سنة ٦٠٤ هـ كان يكتب الرسائل للامير عبد الواحد بن امير المسلمين يعقوب المريني، ألف في اكثر الفنون غير ان معظم مصنفاته ضائعة اليوم. ينظر: الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية: ابو الحسن علي بن عبد الله بن ابي زرع (٧٤ هـ) دار المنصور للطباعة والنشر - الرياض، ١٩٧٢، ص ١٢٢؛ الاحاطة: ٣/٣٠٣-٣٠٤، النبوغ المغربي في الادب العربي: عبد الله كنون، مكتبة المدرسة - دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط ١٩٧٥، ٣/٢٥٨-٢٦١، الوافي بالادب العربي في المغرب الأقصى: ٣٣٨/١-٤٤٢؛ رسالتان في عروض الدوبيت، لابن المرحل، تحقيق: الاستاذ هلال ناجي، مجلة المورد، مج ٣، ع ٤، ١٩٧٤، ص ١٤٥-١٤٩.

(٢) الذخيرة السنوية: ص ٩٨، النبوغ المغربي في الادب العربي: ٧١٩/٣، الوافي بالادب العربي في المغرب الأقصى: ٣٤٣/١.

(٣) الذخيرة السنوية: ص ٩٨-١٠٩، النبوغ المغربي في الادب العربي: ٧٢١/٣، الوافي بالادب العربي في المغرب الأقصى: ٣٤٤/١.

لقد جلب ابن المرحل وسائل التأثير المكانية عندما جلب (مكة والصفاء وزمزم) وهي أماكن دينية مقدسة ليدعم بها نظريته الدينية تجاه الأندلس وأهلها، التي قدست فيها القول عند حديثنا عن النص. وأما الوسائل الفنية فقلما غلبت على أبيات ابن المرحل نظرية واضحة وتقريرية هشة فككت أجزاء النص لغة وتركيباً. وأما من ناحية الصورة فقد بقيت بعض وسائل البيان تثير انتباه القارئ هنا وهناك. وعلى الرغم من هذه النظرية إلا أن القصيدة تعد واقعاً ملموساً وتحكي سمات المكان الآتي الذي استجد له الشاعر.

وكان ابن الخطيب ممن حملوا لواء الاستجداد بملوك المغرب في سنوات عدة، وطغى على استجداده الخوف مما قد يحل في غرناطة ما حل في قرطبة وبلنسية وإشبيلية. لاسيما وقد تعرض أهل غرناطة لنكبة أخرى وهزيمة منكرة شابهت نكبة العقاب وهزيمتها وهي نكبة طريف. إلا أن شاعرنا تحدث في أغلب قصائده عن هذه الواقعة بثقة وعزم، وهو يوازنها بوقعة أحد وما حصل للمسلمين فيها، ولكننا - وفجأة أحد - ما اثنت عزائمهم، وما استهدفت وحدتهم⁽¹⁾. وهو يعد مثل هذه القصائد نوعاً من العظة والاعتبار يستتبع به الهم لنجدة غرناطة، ويسعى لبقاء العلاقة وثيقة متحدة بين المغرب والأندلس حتى إذا ما دعا داعي الجهاد ذهب الجميع لنصرة الدين الواحد وحماية الأرض الواحدة يقول:

أخواننا، لا تنسوا الفضل والعطف
وإذا بلغ الماء الزبى فتداركوا
تحكم في سكان أندلس العدا
وجاشت جيوش الكفر بين خللها
ثغور غدت مثل الثغور ضواحكاً
وكيف يعيت الكفر فينا ودوننا
فقوموا برسم الحق فينا فقد عفا
وها نحن قد أذنا بعز حماكم
فقد كاد نور الله أن يطفأ
فقد بسط الدين الحنيف لكم كفاً
فلهفاً على الإسلام ما بينهم لهفاً
فلا حافراً ابقت عليها ولا ظلفاً
أقام عليها الكفر، يرشغها
رشفاً
قبائل منكم تعجز الحصر والنوصفا
وهبوا لنصر الدين فينا فقد اشفا
ونرجو من الله الأداة واللففا⁽²⁾

(1) ينظر: ديوانه: ص ٤١٠.

(2) ديوانه: ص ٦٢٨-٦٣٠، (الآبيات بتصرف).

وعلى الرغم من ان ابن الخطيب ركز على الاستجداء للاندلس بقوله (تحكم في سكان الاندلس العدا)، وركز الشاعر على الوحدة الاسلامية التي من اجلها استجد بلهل المغرب بقوله (اخواننا، لهفا على الاسلام) الا ان الشاعر وغيره^(١) لم يعد يستصرخ من اجل تحرير الارض والمدن التي استولى عليها العدو، ولم يعد مترافراً على تلك الانفاس الحماسية الملتهبة، والامل في المستقبل ولكنه فقط يستجد الان من اجل البقاء على غرناطة اليتيمة. وحفظ رمق الاسلام فيها فالنصارى يعيثون في الارض فساداً وقوتهم تعتبر اكبر قوة في الجزيرة، وكل شئ في نظر الاندلسيين ينذر سجيماً. ذلكما ينذر بالويل والسقوط^(٢).

لقد بقي المكان في هذه النصوص المحور الاول في استطلاق مشاعر الشاعر الاندلسي، ومن ثم انصارها في بوتقة ابداعه الادبي. فحلفت مثل هذه القصائد الوطنية النفيسة- شعورا وفنا-. والمكان الأني مثلما ارشدنا بعمق لا ستكناه تلك المشاعر، دلنا باهتمام وموضوعية على معرفة تلك الفنون والاعراض التي نشأت جراء هذا الاستدلال. فكان ادب الاستجداء من بين هاتيك الاعراض التي انبثقت من سمات الكبر الأني في الاندلس، المرتبطة باحداثه وشخصه. فهو الاستجداء- يعود لتعبيرات تمكن الطارئة، وتبدل شخصه والقائمين عليه، التي يخضع لها الاديب- عاطفة واحساساً وادبا-.

(١) ينظر: ديوان ابن الخطيب: ص ٢٨٨، ص ١٥٤٣ العبر وديوان المبتدأ والخبر: ٢٢٠/٧، نزار الرياض: ١٠٤/١، ١٠٨-١٢٢، -الاستقصا لاخبار المغرب الأقصى: ١٩٥/٣.

(٢) الاصوات النضالية والانهزامية في الشعر الاندلسي: ص ١٥٠.